منى برنس

ثلاث حقائب للسفر



رواية



ثلاث حقائب للسفر

روايـــــــة

منى برنس

لوحة الغلاف للفنان :هوندرت فاسر

الطبعة العربيةالأولى : ديسمبر ١٩٩٨

رقم الإيداع: ٩٨/١٣٩٩٤

الترقيم الدولى :I.S.B.N 977-291-116-7



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

منى برنس

ثلاث حقائب للسفر

رواية



إهداء

إلى أبى ..

لأنه كان يشترى لى قصصاً أكثر من الشيكولاته .



- منيرة .. هل سيفيدك السفر حقاً ؟

- لم أعد قادرة على البقاء ياسهى .. أختنق ببطء .. أريد هواء أتنفسه .

- وتظنين أنك ستجدين فى الهند مالم تجديه هنا ؟

- لاأعلم .. لم أحقق شيئاً هنا - وقد لاأفعل هناك - ولكن ربما ..

- لكن ماذا ؟

- كفى ياسهى ، لاأريد الخوض فى هذا الموضوع ، لاأريد التفكير أنا خلاص مسافرة .. الليلة .

لم تجد سهى شيئاً جديداً أوقديماً تضيفة فانصرفت قائلة : سأتصل بك فى المساء . تركت منيرة جالسة على الأرض فى غرفتها، محاطة ببعض الكتب والملابس وألبومات صور . فتحت ألبوم صور الجامعة وتوقفت عيناها عند إحدى الصور التى تجمعها بالشلة .. شلة الجامعة ، وهم يقفون تحت ظل شجرة عتيقة ضاربة بجذورها فى أعمق أعماق الأرض ، وفى الخلفية قصر الزعفران .. ألوان وضحكات ، وأوضاع حركية مختلفة .. وقلق مستتر .

لم يبق أحد . أسامة وسيد وعادل سافروا دون أن يحققوا شيئاً هنا، ارتحلوا إلى أوروبا يتسكعون فى شوارعها ويقولون إنها خبرة ! وصفاء اللؤلؤة النقية .. أين هى الآن ، تعمل مدرسة فى الخليج ليس لاحتياج مادي ولكن لأنها أيضاً لم تحقق شيئاً هنا .. هل تعنى «هنا» التى أصر على استخدامها أنه لم تعد هناك فرص للحياة ؟ هل بأرض مصر شيء يعيقنا؟ شيء يعجزنا، شيء يقتلنا ، أم الخلل فينا نحن ؟

رفعت الصورة أمامها وتنهدت بعمق وهى تنظر إلى أصدقائها ..

سميرة تزوجت ولم تنجب، وظل حبها الأول يطاردها رغم أنها اكتشفت - ربما متأخراً - أنه كان وهماً كبيراً، وأنها أضاعت أحلى سنوات العمر جرياً وراء السراب، وهاهى الآن تقنع بدور الزوجة وربة البيت، وتقوم بالزيارات الاجتماعية، والذهاب إلى الأندية بعد أن كانت فتاة ثورية تقود المظاهرات الطلابية فى الجامعة، أين ذهبت أحلامها وآمالها فى التغيير ..

وسهى .. فتاة ثورية أخرى ماتت ، وظهر بدلاً منها فتاة تعيش على أمل أن تغير رجلاً أحبته، يستغلها ولايحبها .

وحسين .. الطالب المشاكس الذى كان يدعو للاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، كيف تبدل حاله . اشتغل بالتجارة وحقق مكاسب هائلة، تراه الآن تكاد لاتعرفه ، يرتدى أفخم الملابس ، لديه سيارة فخمة مزودة بتليفون لاسلكى ، ويسهر فى فنادق خمس نجوم ، كيف تغير ..

ويوسف وعلى يبعثران سنوات العمر بالجامعة فى محاولة يائسة

للتشبث بهوية ، أية هوية .

قال لي يوسف ذات مرة :

أنا داخل الجامعة طالب ، وعندما أتخطى أسوارها لاأعرف من أنا .

ويضحك قائلاً والمرارة تذيب ضحكته :

لست من أولاد الذوات ، فعلام التعجل والخروج من الجامعة !

أين الخلل ؟

من أين تنبت الأشواك التى تدمى أرواحنا وتعيق سيرنا ؟

لماذا لاتموت الأسئلة .. تموت مثلما تموت الأشياء الأخرى .. هذه الأسئلة الملحة .. من أين تكتسب أكسير الحياة .. من أين تستمد قوتها على البقاء وقد فنت الأشياء الأخرى ؟

لم يعد يثيرنى الموت أويبعث فى تساؤلات طالما أرقتنى . الموت يحصد عائلتى ويغتال أحلامى كيفما تكون ..

قامت من مكانها لتحضر حقائب السفر من فوق خزانة الملابس . اثنتان فقط ، الكبيرة للملابس والأحذية وبعض الكتب ، والصغيرة للأشياء الشخصية وشرائط الكاسيت . وقفت تنظر للحقيبتين وهما فارغتان .. تمنت أن تسافر بدون حقائب .. بدون أحمال .. ولكن هل يكون سفر بدون حقائب .وهل تستطيع أن ترحل حقاً دون أى أحمال ؟

الحقيبة الأولى

(١)

فتحت الحقيبة الصغيرة أولاً .انتقت عدة صور مختلفة لها وهى فى مراحل حياتية مختلفة . صور عائلية ، صور أصدقاء ، صور لفلاحات وبيوت قديمة كانت قد التقطتها خلال رحلاتها للواحات وجنوب مصر . وضعت الصور بعناية في الجيب الداخلى للحقيبة .فتحت درج المكتب العلوى وألقت نظرة بداخله .. بعض الأوراق والأقلام وخطابات قديمة وصور ، صور أخرى . قلبت فيها ، انتبهت الى صورة قديمة ،أبيض وأسود .. صورة عائلية تجمع أخوالها وأعمامها ، خالاتها وعماتها ، الجدتين ، وأبناء وأحفاد فى حفل زفاف أحد الأبناء . عدّت الأشخاص الموجودين بعد على قيد الحياة. تقلص العدد إلى النصف تقريباً . أمسكت بالصورة لفترة وجلست على الأرض تحدق فى شخوصها .. أشارت بأصبعها إلى رجل طويل القامة فاتح البشرة له بعض ملامح أمها .. خالى محمود .

(٢)

عائلتى تنقرض .وتعود بدايات هذا الانقـراض إلى أوائل الثمانينيات ، حيث افتتح خالى الكبير - خالى محمود - السباق إلى العالم الآخر ليتبعه فيما بعد عديد من أفراد عائلة أمى وأبى أى عائلتى الكبيرة .

كنت وقتـها مع أبى وأمى فى الخليج - حيث يعـمل أبى طبيبـاً بإحدى المستشفيات ، وتعمل أمى مدرسة بإحدى المدارس الحكومية هناك ، وكنت الابنة الوحيـدة لهما التى أنجباها بعد فـترة ليست قـصيرة من زواجهـما ، فكانا يخـافان علىّ كـثيراً ، فلم أخـتلط بأحـد من الجيـران ، ولم يكن لنا أصدقاء نتزاور معهم . حياتنا كانت تسير كالتالى : نخرج جميعاً صباحاً كل إلى وجهـته ، فيـذهب أبى إلى المستشـفى وتذهب أمى إلى مدرستـها التى كنت تلميذة فيها . أعود أنا وأمى ظهراً بينما يعود أبى عصراً . نتناول الغداء ثم نـستريح قليـلاً حتى المغـرب ، ثم نستيقظ جمـيعـاً ، أنا لأذاكر دروسى ، وأمى لتحضر دروس اليوم التالى ومشاهدة مايعرضه التليفزيون من برامج مصـرية ، وأبى ليقرأ الجرائد والمجـلات والنشرات الطبيـة .حياة روتينيـة رتيبـة لاشىء يتـغيـر فـيـها منـذ أن وفدنا إلى الخـليج مع مطلع الثمانينيـات وحتى عودتى أنا وأمى نهائياً فى منتصف الثـمانينيات لادخل

لنا بما يحـدث فى الخليج أو فى المناطق المجـاورة ، فـرض أبى على نفسـه وعلينا العـزلة وكأننا نعيـش فى كوكب آخر غـير الأرض العـامرة بالناس ومشـاكلهم ، لاشأن لنـا بما يحدث فى الخارج. كـل واحد يركز فى عـمله ويتقنه ، هكذا كان يقول أبى .

مات خالى الكبير . كـان ذلك منذ نحو تسع سنوات . وعندما وصلتنا برقيـة من زوج إحدى خالاتى تفيـد بأن خالى محمـود مات ، ارتدت أمى السـواد ، وكنت أريد أن أرتديه أنا أيضـاً تقليـداً لها ، ولكنـها قـالت إننى لازلت صغيرة على لـبس الأسود ، كنت وقتها أبلغ من العمـر أربعة عشر عاماً وفى حالة حب متعذرة .

مات خالى الكبيـر ، وجلست أمى تردد الحلم الذى ذكرته لى قبل أيام من وفاته : حلمت أن سـتك وسطها مقـصوم ،والبيت مليـان ناس، لابسة أسـود، وشقـة محـمود ملـيانة على آخـرها، وخالـتك زينب جلست على السلم .. وشـفت فـلان وفـلان .. جلست تذكـر لى أسـمـاء أقـارب لنا لاأعرفهم ولم أرهم من قبل .

تشائمت أمى وتنبـأت بحدوث كارثة وعندما جـاءت البرقيـة فسرت الحلم وقالت : ألم أقل لكم .. كانت لدى أمى شفافية مزعجة ، فقد كانت أحـلامهـا تتـحقق بشكل يدعـو للدهشـة حـقا سـواء الأحـلام المبـهجـة أوالكوابيس ، ففى العام السـابق لوفاة خالى رأت أمى فى منامها أن جدتى ترتدى أبيـض فى أبيض زى مـاتكـون فى فـرح . وفى ذلك العـام ذهبت جدتى إلى الحج . كانت أمى تقول أن فيها شيئا لله .

مات خـالى محـمود .كـان أول من أعى موته ولكن لست أذكـر أننى حزنت كثيراً لموته .حزنت أكثـر على حزن أمى ، وكعادة مايحدث فى مثل هذه المناسـبات أغلق التليـفـزيون وأذيعت آيات القرآن الكريم " ألا بذكـر الله تطمئن القلوب " ، ولكن هل تطمـئن القلوب حقاً .. ومكثنا على هذه الحال فترة قصـيرة نسبياً، ولكنها كانت طويلة جداً بالنسـبة لي، فقد مللت سـريعاً وكنت أنتـهز فـرصة خـروج أسرتـى للتسـوق وأبقى بالمنزل أدير شـرائط الموسيـقى والأغـانى الهندية . كنت أحب شـاباً هندوسـياً اسمـه سنجـاى . رآنى ذات يوم مع أمى وكـانت ترتدى مـلابس الحداد ، سـألنى فأخـبرته أن خـالى مات. وذكـرت محـاسن موتانا فـقلت : إنه كان طيـباً عطوفاً ،وكان يحب أمي كـثيراً ، وكان يزورنا دائماً وعـادة نحن لانتذكر مثـل هذه الأشيـاء إلا عندما نفـقدها .. والآن عندمـا أعود بذاكـرتى إلى الوراء أقـول نعم كـان يزورنا باسـتـمـرار، ويحـضر لـى الحلوى واللعب ويحكى لى عن رحلاته حـول العالم ، زار إيطاليا والهند وفرنسـا واليونان .. كان خالي بحاراً وكان يشبه الممـثل السينمائى كمال الشناوى فى شبابه .. ولكننى لم أكن أهتم كثيراً .

كان لخالى ابن يكبـرنى بأعوام قليلة ، سامى . كنا أصدقـاء منذطفولتنا يحكى لى وأحكى له وعندمـا كنت أعود إلى مصر فـى الإجازة الصيفـية كنانقضى أوقاتاً طويلة معاً .. لـم يحقق نجـاحاً فى دراسته ، ولم يجد عملاً مناسباً، ولـم يقـابل من تشاركه طموحاته وأحلامـه . لاأعرف كيف أومتى بدأ يتسـرب إليه الإحسـاس بعدم الانتـماء والاغتـراب . جاءنى ذات يوم يقول : ليس لى مكان هنا ، أنا مسافر . أكره هذا البلد . أذكر أنه سب البلد

وأهلهـا، وأذكر جيـداً رد فعلي . شـتمـته وكدت أضـربه ، وألقيت عـليه محاضرة عن الانتماء وحب الوطن وحـب الناس ، سخر مني واستهزأ بما أسمـاه الكلام الكبيـر الذي لافائدة منه، ولكنه بلع الإسـاءة التي وجهتـها إليه، وسـافر إلى أوروبا وصار يراسلني ، وتواصـلنا رغم كل شيء بعد أن قررت مـوعدالسفـر ذهبت إليه أودعه ، وكـان في إجازة قصيرة يزور فيهاوالدته ، أخـبرته بقراري . لم يصدق سامي مايسـمعه وقال : أنت التي تقـولين هذا الكلام ! تسافـرين .. من الذي سيحب الوطن ويضـحي من أجله إذن ؟ لم أعلق على جملته، ولكنـني رأيت في عينيه أثر الإهانة التي تلقـاهـامني قـبل سنوات، فـقلت له: يحق لك الآن ياســامي أن ترد لي الصفعة صفعتين .

عندما عدنا في الإجـازة الصيفية هبطنا أول ماهبطنا في البـيت الكبير ، وبدأت سيمفونية البكاء المتواصل بترنيماتها المختلفة ، وشاركت في البكاء أنا أيضـاً ، فلم يكن من الســهل أبداً أن توجـد في مكـان كل من به يبكي ويولول دون أن تتـأثر وتبكي مـثلهم ، وكان يومـاً .فـخالي هو أول فـقيد للعـائلة بعـد انقـطاع دام نحـو ثلاثين عـامـاً وقت أن توفي جـدي لأمي. صعـدنا إلى جدتي في الطابق الثـالث، وفوجـئت بهالاتبكي ولاتتـحدث كانت مهزومة .. مات ابنها البكري .

قـالوا : مـرض ثلاثة أيام ثم مـات يوم الجـمعـة وقت الآذان .. وكـان رمضان .

قلت : سيدخل الجنة إذن.. كان يصوم ويصلي ويؤدي فرائض دينه.

فى الواقع كـان الوحـيـد بين أخـوالى الـذى يركـعـهـا . وتحلقت أمى ونسـوان البيت وبدأت تحـكى لهم الحلم الذى رأته قـبل وفاة خـالى بأيام، وتعيد وتزيد حتى شهد الكل بأن فيها شيئا لله .

ودخل العـيد علينا كـئيـباً لامعنـى له . لم يعد العـيد فـستاناً جـديداً وعيدية ومـراجيح . صار موسماً للذهـاب إلى المدافن والبكاء على الأحبة الذين هجرواالدنياوهجروا ذويهم .

وانتهت إجازتناالصيفية، وعدنا إلى الخليج ثانية لأجد حبيبى تزوج كما أخبرنى قبل أن أسافر ، يريد أن يصبح أبا فتزوج وباركت له .

ولست أذكر على وجـه الدقة كيف كـان إحـساسى عندمـا تأكدت من زواجه ، فقـد ظل عقلى يتأرجح بين الشك واليقـين طوال الإجازة قال إنه قد يتزوج وقد لا . ومنيت نفسى بأنه لن يتـزوج مع إدراكى التام باستحالة زواجى منه.كنت مدركة تمام الإدراك أنه سيأتى يوماً تنتهى فيه هذه العلاقة ولكنى مضيت فى طريقى إليها ، ولم أجرؤ قط على إنهائها .. ولماذا ؟

وكان الـطريق المسدود الأول . كنت سـعيـدة وهذا يكفى . هكذا قلت لنفسى ولكن .. هل تكفى السـعادة الموقوتة لأن تكون سبـباً فى غلق قلب لزمن يبدو لانهائى ؟ هل تكفى لحظات السعادة القـصيرة غير المكتملة لأن تكون سبباً فى فرض العزلة وحظر التـجول على القلب والعقل معاً لزمن آخر يمتد أمامـي؟ هل تكفى حقاً لأن تكون سبباً فى تخـبطى العشوائى من طريق لآخـر ؟ لو سـألونى هل تكررين القـصـة المرة تلو المرة بلحظاتهـا الحلوة والمرة ثم تبكين فى نهاية المطاف أقـول : نعم . أقولها بلاتردد نعم له

ثانية وثالثة .. كان إنساناً ولست فى حاجة إلى تفسير معنى إنسان فليس كل من هو من بنى آدم إنساناً ولكن سنجاى كان إنساناً .

ألقى برأسى للخلف الآن وأتذكرعينيه العسليتين الواسعتين وأهدابهما الطويلة . أتذكر الآن كيف لم أكن أستطيع النظرإليهما لأكثر من ثوان . كانت عيناه تأسراننى . قلت له ذات مرة إن عينيك تسحراننى ألست هندياً والهنود سحرة . فضحك وهز رأسه موافقاً على كلامى . كان يقرأ لى شعر طاغور وإقبال وحالى، ويحدثنى عن بوذا وغاندى ونهرو، ويصف لى تاج محل وقطب منار والمعابد الهندوسية والبوذية والمساجد ونهر الجانج . أحببت الهند من خلاله وتمنيت رؤيتها . وهاأنا فى طريقى إليها .. لكن هل سأحقق شيئاً حقاً . تزوج سنجاى وصار أباً وتحققت أمنيته، وسعدت له كثيراً وكأننى أنا التى أنجبت له الولد .

(٣)

تَحرك أصبعها على الصورة وتوقف أمام سيدة مسنة ترتدى طرحة سوداء، تقف بجانب رجل شاب من الناحية اليمنى . لم تتبين ملامحها جيداً فانتبهت إلى أن الشمس قد تخلت عن نهارها وأغربت . نهضت منيرة من على الأرض والصورة فى يدها . أضاءت النورونظرت بإنعام جدتى لأبى .

كنت منشغلة بعالمى الخاص عما حولى ، لذلك لم أتأمل كثيراً موت خالى ولاجدتى لأبى التى أعقبت وفاة خالى بعامين . كان ذلك بعد عودتى وأمي نهائياً من الخليج، وكنا قد سبقنا أبي إلى القاهرة على أن يلحقنا هو ليقوم بإجازته بعد شهر. وفى يوم عودته علمنا بالخبر الكارثة ، وكان كارثة ليس للحادث فى ذاته ولكن لوقعه على أبى شديد التعلق بأمه رغم سفره المستديم . وبكيت يومها كثيراً خوفاً مما قد يحدث لأبى ، وكدت لاأصدق أن جدتى ماتت حقاً وأن أبى لن يراها ثانية . كانت جدتى أول من يذهب إليه أبى عندما تطأ قدمه مصر . لم أكن أنا متعلقة بها تعلقاً غير عادي - كانت جدتى وفقط ، ولكنها كانت تحبنى كثيراً لأنها كانت تحب أبى كثيراً ، وعلى رأى المثل «أغلى من الولد ولد الولد»

وكانت تدعى لى ربنا دائما أن ينولنى كل ماأريد .

انتقلت جدتى إلى العالم الآخر . هذا الذى لانعرف عنه شيئاً محدداً. أثناء وجودنا فى الخليج فى الوقت الذى كانت قوات الأمن المركزى تواجه الجيش بعد أن خرجت من ثكناتها فى تمرد غير مسبوق على وضعها غير الإنسانى ، رغم فرض حظر التجول وإعلان حالة الطواريء المعلنة دائماً. تموت جدتى بالسكتة القلبية ويتساقط معها المئات تحت الدبابات وأمام رصاص المدافع ، ولكن أخبرنا عمى فيما بعد أن الجنازة قد سارت رغم هذا الخطر وأنه قد تم دفن جدتى بطريقة لائقة .

لم أعلم بتفاصيل هذا التمرد إلا فيما بعد ، كل ماعرفته وقتها أن قوات الأمن المركزي أحرقت كازينوهات شارع الهرم ، وأنه يجرى إصلاحها . لم يكن لوالدى اهتمامات سياسيه وبالتالى مثل هذه الأمور لم تكن لتناقش داخل بيتنا .

تقول أمى إنه منذ عام ١٩٦٧ التزم أبى الصمت عن الأمورالسياسية ، وكنت عندما أسألها عن السبب كانت تقطب جبينها وتدير وجههاوتغير الحديث أوتصمت ، وجدت أنها تنزعج عندما أتحدث معها فى هذا الموضوع فلم أعد أسألها .

لم يخبرنا أحد بوفاة جدتى فى وقته حفاظاً على مشاعر أبى فى منفاه الاختيارى .. وجاء أبى من المطار لاتكاد قدماه تحملانه ، وكاد يسقط من على مدخل البيت وقد حدس بقلبه أنه لن يراها ثانية . وبكى أبى، وبكيت أنا الأخرى لبكائه.

ومرة أخرى يغلق التليفزيون، ويرتفع صوت المسجل بآيات القرآن الكريم لعل القلوب تطمئن ، ونذهب إلى المدافن لنقرأ الفاتحة

وأذهب معهم على غير رغبتى ولكن إكراماً لأبى .

لم أكن أعى أيضاً ، ولم أكن أفكر فى الموت . وتوافد المعزون على البيت وبدأت سيمفونية بكاء أخرى بعد أن مات الميت بشهور ، لم أكن أحب هذه الطقوس العزائية ولاكلماتها الجوفاء ..

مامعنى «البقية فى حياتك» أو «تعيش أنت» .

عدت لحبيبى أتشبث به فى هذا الجو الكئيب، يمنحنى بقعة مضيئة وسط سواد معتم : أذكره وأحكى عنه وأكتب له لخطابات التى لم ترسل وأدونها فى كتاب بنفسجى اللون خططت اسمه عليه ..

سنجاى .

فتحت منيرة الدرج الأسفل للمكتب وأخرجت الكتاب ، فتحته على إحدى صفحاته المنسية ، وقرأت ..

حبيبى سنجاى .. يلومنى الناس لأنى أحبك .. يحاولون قدر استطاعتهم أن يثنونى عن حبك .. لكن لا لن يحدث .. لن يستطيعوا .. لأننى لاأمزح .. لأننى لاأكذب .. أنى أحبك .. يتحدوننى أننى سأنساك لا .. حبيبى لن يستطيعوا .. أعدك يا حبيبى بأن لاأسمح لأحد بأن يقترب من قلبى

محبتك منيرة

القاهرة/ فبراير ١٩٨٧

أغلقت الكتاب وهى تتعجب من هذه الكلمـات التى تبدو ساذجة جداً الآن بينما كانت تعتصر قلبها حين كتبتها أول مرة .

رنت الجملة الأخيرة بداخلها .. الوعد .. كم مرة خانت ذلك الوعد ، مرتان .. ثلاث ربما ..

فتحت الحقيبة ووضعت الكتاب داخلها . نظرت إلى ساعتها .. لايزال أمامي بضع سـاعات أخـرى ولكن يجب أن أسرع . ألقت بعض الأشـياء الخاصة وشـرائط كاسيت لعبـد الحليم ومنيروفيروز وأم كلثـوم وواكمان بداخل الحقيبة وأغلقتها .

الحقيبة الثانية

(٤)

وضعت الحقيبة الكبيرة على الفراش وفتحتها . وقفت أمام خزانة الملابس تنظر إلى الملابس الملقاه بداخلها دون ترتيب . كان عليها أن تخرج كل الملابس خارج الخزانة حتى تتعرف شكلها وملامحها ومايصلح لها الآن ،وتختار منها .

ألقت بعض القمصان الخفيفة وتى شيرتات قطنية إلى الحقيبة . وبينما هى تقلب بقية الملابس أمسكت بكم فشدته . فستان قديم .. الفستان الكاروهات الأخضر .. الفستان الذى يحبه سنجاى .. كانت ترتديه كثيراً فى السنوات الأولى بالجامعة ،فأطلق عليه أصدقاؤها فستان الجامعة رغم أنهم يعلمون القصة .

بدأت المرحلة الجامعية وأنا مكبلة بعواطفى التى حافظت عليها وغذيتها ونميتها ،ومثقلة بالتعليمات المشددة بألا أختلط مع زملائى، وألا تتعدى الزمالة أسوار الجامعة وألا أشترك فى النشاط الطلابى ، وأن أعود إلى البيت فور انتهاء المحاضرات . كل هذا لأن نوعى أنثي .. وبدأت أشعر بأن كونى فتاة سوف يشكل لى عائقاً ، فلجأت إلى حل ساذج وهوأن أقص شعرى باستمرار ، وأن أرتدى الملابس الرجالى ، وبالطبع لم

يفلح هذا الحل الظاهرى فى حل مشكلة النوع هذه التى نعانى منها نحن الفتيات بشكل أوبآخر ، وتولد لدى الإحساس بأننى أتيت إلى هذه الدنيا بشكل خاطيء . كان يجب أن أكون ولداً .. لابد أن خطأ ما حدث أثناء التكوين فجئت بنتاً وأسمونى منيرة مع أنى سمراء .

انصب اهتمامى على دراسة الأدب الإنجليزى والتعرف على الثقافة الأوروبية .أربع سنوات كان لها أثر كبير فى تشكيل عقلى ووجدانى فيما بعد .. وأكثر ماأحببت كان جورج إليوت وتوماس هاردى . أحببت فى الأولى تمردها على مجتمعها المزيف وأعجبتنى أخلاقياتها النابعة من داخلها لا من خارجها ، ولمست فيهاشيئا من نفسى فقرأت لها .. وأعجبنى تشاؤم وتشكك هاردى الذى وجد أيضاً صدى فى نفسى ، وعشقت مع وردثورت الطبيعة وقدسيتها وانطلق خيالى مع كوليردج وقصائده .

وفى سنة من سنوات دراستى الأربع مهد لى القدر طريقاً عقيماً آخر لايوصل إلا إلى حارة سد فى النهاية.. ولم أدرك عقم الطريق إلا عندما بلغت منتصفه، عندها تذكرت ندم ماكبث بعدأن قطع نصف الطريق الدموى الذى بدأه إلى الملك وهو ينظر خلفه وينظر أمامه ، طريق دموى بدأه ولم يستطيع إلا أن يكمله فأكمله .. ولكنه كان طريقاً عقيماً كطريقى.. ومع اختلاف الموقف والزمان والمكان فطريقى وإن لم يكن دموياً كان عقيماً وعبثياً، وكانت العودة من حيث بدأت أمراً بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً ، فلم يكن أمامى إلا الخيار الثانى وهو المضى قدماً مزودة بمعرفتى عن عقم الطريق .

ألقت فستان الجامعة فى الحقيبة ورفعت آخرعن الأرض.. فستان أزرق

منقوش بدون أكمام .. الفستان الذى يحبه عبد الرحمن .. كلهم يحبون الفساتين .

التقيت بعبد الرحمن الذى لم يكن من الممكن أن ينم لقائى الأول به بأى حال من الأحوال عما تطورت إليه العلاقة فيما بعد ، لا زلت أذكر أنه كان الخميس الأول من عطلة نصف العام الدراسى، فى ندوة عامة بمعرض الكتاب الذى كنت أحرص على حضوره ومتابعة بعض ندواته .. سمعته يقول إن السادات تحالف مع الشيطان وباع القضية العربية وأضاع نصر أكتوبر. لم يعجبنى أبداً ماقاله هذا الرجل عن السادات ولم تعجبنى هذه اللهجة اللاذعة التى يتحدث بها وعقب انتهاء الندوة ذهبت إليه وقلت له : كيف تتحدث عن الرجل الذى حقق السلام وأعاد لمصر مكانتها فى العالم بهذا الشكل و... قاطعنى الرجل ووجه إلى نظرة لاتنم إلا عن الاستهزاء والاستخفاف بى وبما قلت وقال : أنت لاتفهمين شيئاً فى السياسة، الأفضل أن تهتمى بدروسك .. لم يعد يهمنى ماقاله عن السادات ولا وصفة لمعاهدةكامب ديفيد بأنها تحالف مع الشيطان . لكن ضايقنى كثيراً ماقاله لى ونظرته التهكمية والسخرية التى بدت واضحة فى نبرات صوته.. لقنونا فى المدرسة أن السادات هو بطل الحرب والسلام وأنه استرجع أرضنا التى احتلت فى عام ١٩٦٧ ، وكانت مواضيع الإنشاء فى امتحانات نصف العام ونهايته لاتكاد تخلو من ذكره وتمجيده وذكرنصر أكتوبر العظيم .

ورغم خشونة معاملته وجفاء حديثه فإننى أصررت على معرفته .. لاأدرى لماذا ؟

وقررت أن أحضر محاضراته عن تاريخ مصر الحديث ، وبعد انقضاء عطلة نصف العام ذهبت إليه فى الكلية استأذنه فى الاستماع إلى محاضراته.. رمقنى بنظرة متشككة وهزكتفيه غير عابيء ثم انصرف وأثار ضيقى للمرة الثانية . ولكنى تغصبت على نفسى ودخلت حجرة الدراسة واستمعت إليه ، محاضرلبق ذكي متواضع ودمه خفيف ، أشياء تتناقض وشكله المتجهم . بهرنى . يقول المثل «ما محبة الا بعد عداوة» وهذا ماحدث.

وكان الطريق الخاطيء الثانى ممتداً أمامي فأغمضت عيني وسرت قدماً. لم يمر بخاطرى أننى سأحبه ولم اكن لأتجنبه لومر هذا الخاطر بذهنى ، ولم أتردد فى إظهار مشاعرى وإعلان حبى ، وواظبت على حضور محاضراته والندوات التي يشارك فيها وتبنيت آراءه .

كنت أؤكد دائماً أننى سأحبه دوماً ، ولم افكر أبداً فى ان كلمة «دوماً» غير موجودة أصلاً فى حياتنا القصيرة المتغيرة ، وأنه لاشيء يدوم إلى الأبد ، وأنه ليس هناك أبداً أيضاً - كنت صغيرة أفكر بقلبى ، فلم أدرك أن مشاعرى قد تفتر وقد تتغير فى يوم من الأيام ، ولم يكن من الممكن أبداً - أبداً ثانية - أن يخطر ببالى أن يتركنى هو ويتزوج بأخرى ولكنه لم يفعل .

شغلنى عبد الرحمن بشكل لم يدع لى فرصة لتكوين صداقات حقيقية داخل أوخارج الجامعة ، وكان هو كل أصدقائي ومعارفى ، كرست كل أوقات فراغي له، أواظب على حضور محاضراته وندواته وأناقشه فيما يغمض عليّ، فيشرح لى ويزيدنى من علمه ولا يبخل، فيزداد انبهارى وحبى له .

وكان هناك شيء آخر وجدته عند عبدالرحمن . وأكادأجزم بأننى لم أجده عند سواه . الحنان ..غمرنى عبد الرحمن بالحنان والرعاية والفهم . أشياء كنت أبحث عنها وأنشدها .. كان عبدالرحمن بديلاً للأب الغائب فى الخليج فعشقته ولم أبخل .لم تكن علاقتى بأبى علاقة سوية فى يوم من الأيام ، بل أكاد أقول إنه لم تكن هناك علاقة من الأساس. لم يكن يهتم.. كان يطبق مقولة أن الرجل يعمل خارج البيت والمرأة داخله . وبما أننى من داخل البيت فقد وقعت مسئوليتى على كاهل أمي التى كانت تضيق أحياناً كثيرة بهذه المسئولية فتلعن اليوم الذى أتيت فيه إلى الد نيا متناسية أننى لم آت الى الدنيا بمفردى أوحتى برغبتي.

كانت دائماً تقول كان يوم أسود يوم ماخلفتك . فأقول لها ، هو كان يوم أسود أصلاً يوم ماجتمعت ببابا من الأول . إنها غلطتك وليست غلطتى أنا .

– هل تتزوجنى ياعبدالرحمن؟

– أنا فى نهاية الطريق وأنت في بدايته فكيف نلتقى ؟

–ولكنناالتقى بالفعل .

أدار وجهه ونظر بعيداً .

أغمر وجهه بقبلاتى وأقول له أنا أحبك .. فيقول : وأناأيضاً أحبك ياصغيرتى ويقبلنى .

أحيانا كان يعاملنى كطفلة صغيرة بلهاء وأحيانا كامرأة ناضجة

ولست أذكر متى أوكيف شعرت بأنه يستغلنى ، يستهلك مشاعرى

وجسدي ، فنفرت كالغزال الشارد الطلق . وبدأت أفكر .. أسترجع مفردات علاقتنا .. أفككها وأحللها ثم أركبهافلا تعود كماكانت . خلل ما أصابها . وبدأت أتساءل كيف سمحت لنفسي بأن تدورفي محور واحدلاتحيد عنه . كيف سمحت له أن يمتلكني ..كيف سمحت لنفسي أن تتضاءل إلى هذا الحد ؟ كنت أحبه .

(٥)

فى ذلك العام مرضت جدتى لأمى مرضاً شديداً اضطرهاالأر ستحدم جهازاً لتنظيم ضربات القلب والتقى أفراد عائلتى بعضهم ببعض كانت تجمعنا الملمات والشدائد أكثر من الأعياد وكنت سعيدة لأنى مع كل أفراد العائلة وإن آلمنى مرض جدتى وبقاؤها فى المستشفى، وكان أشقانا هوخالى محمد الذى ظل ملازماً لجدتى مدى حياتها ، ثم انتهت الأزمة الصحية على خير وشفيت جدتى وحمدنا الله ، ولكن لم تعد جدتى كما كانت وآذاها ذلك كثيراً .. واستسلمت جدتى لأوامر الطبيب بألا تخرج من البيت وألا تأكل هذا وتأكل ذلك

جدتى كانت كالطود الشامخ .. قامتها طويلة متينة البنيان ، بيضاء البشرة ، عيناها بنيتان يحدد مقلتيهما إطار أزرق لم تكن تتحدث كثيراً ، ولم تكن تظهر انفعالاتها ، ولكنها كانت تتألم فى صمت ولاتشرك أحداً فى آلامها .

كانت شامخة عزيزة النفس ، قوية التحمل . وكانت تسأل عنى دائماً وعندماأغيب طويلاً عن زيارتها كانت تعاتبنى، فأداعبها وأقول لها كنت أبحث لك عن العريس فتخجل جدتى وتضحك وكنت أسعد كثيراً لأننى استطعت إضحاكها كانت تضحك أيضاً عندما أحكى لها كيف

أننى أحب خالى محمد وهو لايحبنى . أقول له خذنى معك فيشير إلى السماء ويقول «أهه اللى بياخذ مش أنا» أشكو لجدتى، فتضحك وتقول: هويحبك . جلستها المفضلة كانت بجانب النافذة التى تطل على نفق الملك الصالح والسوق ومدافن الأرمن الكاثوليك . عندما كنت أراها ساهمة كنت أسألها أن تحكى لى حكاية زواجها . ورغم أننى كنت أعرف الحكاية جيداً وقد حكتها هى نفسها مرات عديدة إلا أننى كنت أستمتع بطريقتها فى الحكى فى كل مرة وأيضاً لأننى كنت أريد إخراجها من حالة الكآبة التى كانت كثيراً ماتنتابها بعد موت خالى محمود . تحكى وتقول : كنت ماشية فى الشارع ورايحة السوق، ولابسة فستان مشجر واصل لغاية نص رجلى، وكنت حلوة وبيضة ومليانة، والرجالة وقتها كانوا بيحبوا الستات المليانة ويقولوا عليها خارجة من بيت عز . شافنى جدك الله يرحمه بقى ويحسن إليه وعجبته فجاء وخطبنى، واتجوزت وأنا عندى ١٤ سنة، وخلفت وأنا عندى ١٥ سنة ، لما كنت فى سنك كان عندى نص دستة عيال . يابنتى أنت عنستى خلاص اللى عايز يتجوز كان اتجوز من بدرى .

وتنسجم جدتى مع الحكاية وتستطرد تحكى ذكرياتها مع جدي.

كان راجل ولا كل الرجالة .. معلم كبير قد الدنيا .. ماكانش مخلينى عايزة حاجة خالص .. وستتنى فى البيت وخلانى هانم .

ثم تسكت عن الكلام وتسرح ثانية ..

وعندما لانجد مانقوله كنت أقترح عليها أن نلعب لعبة ملك وكتابة . جدتى كانت ملكية ، كانت تحب الملك فاروق وترى أن أيامه هى أحسن

الأيام . أيام كلهـا خير وبركـة .. كان كل شىء رخـيص وموجـود .كانت جـدتى من مواليـد أوائل القرن وبالـتالى فـقد شـهدت عـصوراً وأزمـاناً متغايرة، وكانت ترتب العصـور وتحدد الأفضل فى ضوء رخص الأسعار، فكانت أيام الملك تأتى فى المقدمـة وبعدها أيام عبد الناصـر وبعد ذلك كل الأيام سوداء وغبراء ولاتذكرها بخير أبداً

شغلنى مرض جـدتى عن عبد الرحمن لفتـرة . كنت أخرج من الكلية وأذهب إليها فلم أعد ألتقى به إلا نادراً ومنحنى هذا الغياب وقتاً كى أتدبر فيه هذه العـلاقة ، لكن لم أصل لشىء محددفى النهاية فـتركت الأمر كله للأيام تقـضى فـيـه بما تشـاء وواصلت الدراسـة حتـى وصلت إلى السنة النهائية بالكلية .

(٦)

وقبل أن تفتح الجامعة أبوابها ، وفى صباح أحدأيام أغسطس الحار استيقظنا جميعاً على نبأ دخول القوات العراقية الأراضى الكويتية وانقسمت الآراء مابين مؤيد ومعارض .

وانشغلت بمتابعة الأخبار وتطورات الأمور ، وأرسلنا لأبى أن يعود، فالجو متوتر وغير مستقر ولايبعث على التفاؤل خاصة وأن الإعلام الغربى يؤكد نية العراق لاحتلال السعودية وبقية إمارات الخليج . فعاد أبى ذابلاً مهموماً . كان غضبنا على النظام العراقى لاحد له وخاصة بعدما بدأ يهاجم الدول العربية الأخرى، وخاصة السعودية . ولكن عندما أطلقت القوات العراقية صواريخها على إسرائيل هتفنا لصالحه .

مات خالى الثانى قبل أن ينتهى العام بأيام معدودة . وهو حادث يخالف المنطق البشرى، وإن كان يتفق مع المنطق الإلهى ، إذ كيف يموت الصغير قبل الكبير .

بحثت عيناها عن الصورة .. كانت لاتزال هناك بجانب الحقيبة الصغيرة . أين هو؟ نعم ذلك الطويل النحيل الواقف على يسار جدتى لأمى . كان شاباً صغيراً بعد ووجهه باسم مقبل على الحياة .

أصيب خالى مصطفى وهو أصغر ابن لجدتى بسرطان الرئة وظل ثلاثة

أشهر يتصارع مع المرض، إلى أن قضى الله أمره ومات . كانت جدتى تشاهده ولاتملك أن تفعل شيئاً ، يعتصر قلبها وتدمى عيناها وهى عاجزة أصغر أبنائها يتهالك بين يديها..ماأبشع الموت البطىء .. ماأبشع إزهاق الروح .

مات خالى فى المستشفى وكنت وقتها فى البيت وقد ذهب أبى وأمى إلى المستشفى لزيارته . حكت لى أمى فيما بعد أنها رأت مجموعة مرتدية السواد ولكنها لم تميزهم إلى أن ناداها أحدهم وقال لها مصطفى مات

سقطت أمى من أبى ولم تستطع الوقوف على قدميها فظلت على الرصيف .

كنت دائماً أقول لأمى أنه سوف يشفى بإذن الله وأنا أعلم تمام العلم بأنه لن يعيش طويلاً ، وهى كذلك . كانت تعلم ولكننى كنت أود مواساتها . وكنت أعزى نفسى أنا الأخرى وأتمنى لو أن يصدق كلامى ويشفى خالى . ولكن .. بكته كل العائلة . كان صغيراً وحلو الملامح ، أبا لطفلتين لن تذكرا ملامحه حينما تشبان .. كان كأخيه الكبير طيباً عطوفاً وكريماً . جاء إلينا يوم اكتشف وجود تورم فى جانب عنقه وظن أنه ربما تكون الغدة، واستهان بها إلى أن كبرت وظهر تورم آخر فى الناحية الأخرى، فأصرت أمى أن تصحبه إلى الطبيب ولم يعلم خالى من الطبيب إنما حدثه قلبه ، وقرأت أمى التقارير الطبية وعرفت . بكت كثيراً، وصلت من أجله ودعت . ولكن .. ومن كان يصدق ؟

كانت أمى تقول : مصطفى ده ابنى ، أنا اللى مربياه ، أنا اللى كنت

بذاكر له دروسه وأروح معه المدرسة لما كان صغير وأنا اللى خطبت له لما كبر وتتوه أمى فى ذكرياتها ..

مات خالى مصطفى، وترك سحابة كبيرة لم تنقشع أبداً عن البيت الكبير.. وبكاه خالى محمد مر البكاء.

عندما عاد أبى إلى البيت عصر ذلك اليوم قال لى: «خالك مصطفى مات» لم أبك لأنى لم أصدق وبقيت فترة طويلة غير مصدقة أنه حقاً مات كيف يموت الإنسان .. وبدأت أفكر .. ولماذا .. وتأتى الإجابة المنطقية لأنه يجب أن يموت أناس ويولد أناس آخرون لأنه لايمكن للأرض أن تستوعب عليها كل هؤلاء البشر .. الحياة تعنى الموت أيضاً .. ويرفض عقلى الاقتناع ويأبى إلا أن يقول لا.. ولكن هل يفيد الاعتراض وعدم الاقتناع ؟

ويرتدى السواد ويغلق التليفزيون ونسمع القرآن الكريم وتبدأ مراسم العزاء وتدور القهوة على المعزين .. وإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان ذلك بعد وفاة خالى محمود بخمس سنوات . كنت فى آخر سنوات الدراسة ، وكان العالم يتهيأ لشن الحرب ضد العراق ، فداومت الاتصال بعبد الرحمن والتصقت به وكأنه هو الذى سينقذنى من هول مايحدث لنا .

(٧)

مع بداية العام الجديد رن جرس التليفون قبيل الفجر بقليل . كان عبد الرحمن ..

العراق انضربت .

لم أستوعب . وكمن فقد النطق فجأة فتحت فمى لأقول شيئاً . لم أستطع فظل مفتوحاً برهة ثم أغلقته .

وضعت السماعة مكانها وجلست على مقعدى أبحلق في سقف الغرفة . أحكمت إغلاق النافذة وأطفأت النور . ثم تربعت على الأرض ويدى على خدى . ومكثت على هذا الوضع إلى أن طلع النهار. وودت وقتها لو استطعت أن أقطع الشوارع جرياً حافية القدم .. لكنى لم أستطع.

طرقت أمى باب غرفتى ولم تكن سمعت الأخبار بعد . نظرت إلى وضعى على الأرض باستنكار . قالت : الفطور جاهز . قلت لها: العراق انضربت ..

انطلقت بالسيارة أجوب أنحاء العاصمة والضباب يلف البيوت والأشجار والشوارع ولاأميز شيئاً .. أدير الراديو وأنصت لتعلن المذيعة نبأ العدوان الأمريكى الدولى الشرعى على العراق التلميذ المتمرد . وهكذا، بدأت حرب الخليج كما يطلقون عليها في الغرب أوحرب تحرير

الكويت كما يحلو لهم أن يسموها فى الشرق . بدأت عملية عاصفة الصحراء . تنتهى نشرة الأخبار لتتبعها أنشودة الوطن الأكبر .. الحلم المتداعى .

«وطنى حبيبى الوطن الأكبر يوم عن يوم أمجاده بتكبر

وانتصاراته ماليه حياته وطنى بيكبر وبيتحرر

وطنى وطنى»

لم يكن من الممكن الاستماع إلى هذه الأنشودة الحلم فى هذا الوقت بالذات . عن أى وطن يتحدثون.. وعن أى أمجاد وانتصارات ؟

الحلم .. كان كل حلم الأجيال السابقة حتى أوائل السبعينيات .. ثم صار بقايا حلم لجيلنا حتى تلك اللحظة .. نشأنا وتربينا عليه .. ثم هاهو يتلاشى نهائياً أمام أعيننا ليصبح من مخلفات الماضى العريق والأزمنة الغابرة .. أضغاث أحلام ..

هل يمكن أن يدرسوا لأبنائنا فى المدارس بعد ذلك دروس القومية العربية ؟

الحلم ..

انهار .. كلمة انهار كلمة مخففة ملطفة جداً لما حدث بالفعل

انتهى .. لاتفيد المعنى .

كأننى قضيت عمرى أتعبد فى إلهى أقدسه وأضحى من أجله لأكتشف بعد ذلك أنه لم يكن هناك إله على الإطلاق .. إنما هو وهم

حلمت به ، وتخيلته ،جسدته ثم خذلنى ..

الحلم ..

كيف جرؤ ..

أغلقت الراديو وأطلقت العنان لسيارتى تقودنى إلى حيث عبدالرحمن كان فى الشرفة يتطلع إلى السماء واجماً ..

فتح لى الباب ودخل المطبخ ودخلت وراءه أتطلع إليه وهو يصنع القهوة ..

وقفنا صامتين أمام المشعل وقد ثبتت أعيننا على القهوة التى فارت دون أن نراها .

تركته وخرجت إلى الشرفة أبحث عن شىء هناك فى الفضاء الغائم أمامى .. كلب ينبح فى خرابة مجاورة نبتت بها حشائش لم يعتن بها أحد .. وطفل تعرى نصفه الأسفل حافى القدمين .. خرج يبكى من بوابة عمارة مجاورة .. تزل قدمه بحفره .. يقع .. يرتفع بكاؤه .. يمسح عينيه بكفه المتسخ .. تتبعه عيناى إلى الخرابة وإلى الكلب الذى انخفض نباحه وبدأ جسمه ينتفض وهو ينظر إلى الطفل .

أزفر زفرة عالية علها تصل للسماء فيسمعها الرب .. أين هو الآن ؟

هل يعجبه مايحدث ؟ وإذا لم يعجبه .. فلماذا حدث ما حدث ؟

عدت إلى الصالة حيث جلس عبدالرحمن ينظر إلى الجدار المقابل له ، أخذت عقب السيجارة الذى كان قد أوشك على الاحتراق بين أصابعه

أطفأته بمنفضدة السجائر التى تكومت بهـا أعقاب السجـائر حتى شكلت تلاً متعرجاً ..

جلست على الكرسى المقابل له أراقبه .. امتلأ وجهه بتجاعيد عميقة لم أرها من قبل . وكان شديد السمرة ولم يكن كذلك من قبل .

– عبدالرحمن ..

لم يسمعني ولم يرفع بصره عن النقطة التى ينظر إليها .

– عبدالرحمن ..

وفجأة ارتفع صوته « لافائدة .. لافائدة» ثم ألقى رأسه للخلف وأغمض عينيه وهو يتمتم «لافائدة».

– عبدالرحمن .. أحتاجك ..

وبدأت دموعى تسيل رغما عنى وفاضت حتى علا نحيبى .

– عبدالرحمن ..

ركعت عند ركبتيه ودفنت رأسى فى حضنه . لم يحرك ساكناً . ثم بدأت أصابعه تغوص فى شعرى رويداً رويداً حتى هدات قليلاً . رفعت إليه وجهي.. كان لايزال مغمض العينين ، لامست شفتيه كانتا ميتتين .

وفجأة رفعنى من على الأرض ونهض . تشبثت به . ذهبنا إلى الفراش.. ضمنى إليه دون أن ينظر فى عينى اللتين ظلتا تبتهلان إليه حاول.. حاول .. حاول .. لم يستطع .. بقينا صامتين .

غريب أمرى .. لم تكن المرة الأولى التى نتواصل فيها ، وما كان

بتواصل ، ولكن الغريب حقاً هو اندفاعى إليه ولهاثى وراءه وكأنه منقذى أو أن عنده الخلاص .

كانت لقاءاتنا أحادية الطرف لم أكن أتواصل معه من قبل كنت أستقبله كما تستقبل الأم وليدها . كنت أعامله كطفلى الذى لم أنجبه بعد. نهض وتركنى خلفه مطأطأة الرأس . جففت دموعي وارتديت ملابسى وتبعته .

خرجنا إلى الشارع نرصد الوجوم على وجوه الناس ، الذهول أوالتبلد.

– غبى لم يعرف كيف يحسبها .

– هل تعتقد أنهم كانوا سيتركونه يحسبها جيداً .كانوا سيضربونه إن آجلاً أوعاجلاً .

كان الكلام يتعثر على شفاهنا . فنصمت ..

(٨)

كان لابد لنا أن نفـعل شيئاً . وكنت قد بدأت أنخـرط مع زملائى فى الأمور السياسية . فكان أن اتفقناأن نقوم بمسـيرة احتجاج فى الجامعة عقب انتهـاء عطلة نصف العام التى امتـدت لأكثر من شهـر تحسبـاً لمايطلق عليه المؤامرات الطلابية . وكـان قد تم اعتقال بعض الطلبـة المعروفين بنشاطهم السياسى ، وكذلك من اشتبه فيهم مـن مثيرى الشغب فى الجامعة كدواعى أمنية .

كان الاثنين الأول بعـد العطلة . خرجت أنا وزمـلائى من كلية الآداب والتقينا فى الطريق المؤدية إلى كلية الحقوق بمجموعة أخرى انضمت إلينا . نظمنا الصفوف ورفعنا لافتات تعبر عن موقفنا .

لالغزو الكويت ..

لاللتدخل الأمريكى فى الوطن العربى

لاللصهيونية ..

القدس عربية ..

كنت وسمـيرة وسـهى وصفاء فى المقـدمة .. ويوسف وعلى وأسـامة

بجوارنا ، ويؤمنا جميعاً حسين الذى كانت تشغله قضايا بلاده هو الآخر فى ذلك الوقت .

وأغلقت الجامعة أبوابها كالمعتاد عند حدوث مثل هذه الظواهر المخلة بأمن الجامعة وأمن مصر .. كما جاء على لسان أحد ضباط الأمن وقف الحرس على أهبة الاستعداد بأجهزتهم اللاسلكية حتى إذا ماتطور الأمر لاقدر الله تنبعث قوات الأمن المركزى فى ثوان لترد على العدوان الآثم الذى تشنه حناجر الطلبة .

وفوجئت وإن لم أعد أفاجأ الآن بأن أكثرية الطلبة لم يعد يهمهم مايحدث لبلدهم أولأنفسهم .. وضعوا عصابة على أعينهم وانشغلوا أو تشاغلوا بالرحلات والحفلات .. ولعنتهم وإن كنت أشفق عليهم الآن . أشحت بوجهى وهتفت مع الهاتفين .. بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .

كانت تلك هى المرة الأولى التى أشارك فيها فى المظاهرات الطلابية وأندمج فيها مع زملائى . شغلتنى علاقتى بعبدالرحمن ومن قبله سنجاى عن أى شىء آخر . وربما كنت مثل هؤلاء الطلبة الذين لعنتهم من قبل ولأنها المرة الأولى فلم أدرك العاقبة .

انتهت المسيرة وصعدنا إلى مقرنا . فوجئت بفصلى أنا وسميرة وحسين. لم يكن الأمر جديداً على حسين ، فقد فصل واعتقل من قبل .. ولكن أنا وسميرة لم نفصل من قبل ، نزلنا سوياً إلى المسئول نستفسر منه عن سبب الفصل

قال : فصلتكوا عشان عطلتوا الدراسة وخربتوا الزرع اللى احنا دافعين فيه ٥٠٠ جنيه .

قلت : لم نمش وسط الزرع ولم نعطل الدراسة والطلبة يجهزون للرحلات والحفلات ويبيعون التذاكر.

قال : اللى عملتوه يعتبر خيانة عظمى وتستحقوا عليه الإعدام مش الفصل .

كدت أضحك من شدة غيظى فزغرت لى سميرة ، نظر إليها المسئول وقال لها : ولابسة أحمر كمان يعنى شيوعية .

فأبدت سميرة دهشتها وسألته يعنى أيه شيوعيه ، واعجبنى رد سميرة الذى أنهى الحوار .

وفصلنا لمدة شهر . لم أخبر أهلي. كان أبى موجوداً بالقاهرة ، فلم أشأ أن أزعجه أوأقلقه ، ولأنى اعلم جيداً أنه لن يؤيدنى أبداً، فهو من أنصار خليك فى حالك، وكأن حالى ينفصل عن حال المجتمع .

وعدت لمنزلى ذلك اليوم . لم أكلم أحداً. دخلت غرفتى ومكثت بها ، أقطعها جيئة وذهاباً حتى العشاء . ثم خرجت وحكيت ماحدث . مالكيش دعوة بالحاجات دى يابنتى خليكى فى حالك .. اللى بتعملوه ده مالوش فايدة .. فلان الفلانى خرج فى مظاهرةمن ٥٠ سنة لغاية دلوقت أى حاجة تحصل يعتقلوه .. يابنتى ليه تجيبى لنفسك ولنا المشاكل .. يابنتى هتضيعى مستقبلك .. هتتبهدلى وبدون فايدة .. مش هتعملوا حاجة بتتعبوا نفسكوا على الفاضى ..

هربت إلى غرفتى أحتمى بجدرانها الصماء واتصلت بعبدالرحمن وذكرت له ماحدث ..

- هم على حق اسمعى كلامهم ..

أذهلنى رد عبد الرحمن .. أهو الذى يقول مثل هذا الكلام . أنهيت المكالمة ووضعت السماعة وأنا أضرب كفاً بكف، هم على حق اسمعى كلامهم ..

لم نحقق شيئاً . وها نحن نتخبط فى طرق ضبابية . فهل كانواعلى حق ..ترى هل أخطأنا ؟

أسئلة .. أسئلة .. أسئلة ..

ألقت الفستان الأزرق بعيداً ..

(٩)

اتصل عبدالرحمن هاتفياً فيما بعد وقال إنه يريد أن يراني ..

لم تكن بي رغبة في لقائه، ولكني ذهبت . كان معتلاً بعض الشيء فطهوت له شيئاً يأكله . وشرعت أصنع له القهوة ..

- القهوة فارت .. قلت له وتخلصت من قبضة ذراعيه وبدأت أعد القهوة للمرة الثانية . ولكنه لم يتركني أفعل .جذب ذراعي ودفع بي إلى حجرته، وألقى ثقل جسده الحار المهتاج فوق جسدي الساكن .

شعرت أنني أكرهه.. وأنني لاأطيقه .. ولاأدري هل أصابني الشعور فجأة أم أنه تراكم ثم أعلن عن نفسه في تلك اللحظة .

شعرت بالغثيان .

دفعته بعيداً عني واندفعت إلى الحمام . انكفأت على الحوض أتقيأ وأبكي ..

تركته .

وذهبت إلى النيل ملاذي وملجأي قبعت على شاطئه وراسي بين يدي أحملق في أعماقه ، وتمنيت لو أن أغوص في أعماقه واترك له

نفسى، أن ألقى همومى إليه وأهرب .. أردت أن أغتسل .. أن أتطهر
واعترتني رغبة عارمة فى أن أسبح عارية وفعلت خلعت ملابسى وحذائى
ووضعتها على حافة الشاطىء ونزلت إلى النهر أمنية طالما راودتنى.
وتمتزج دموعى بماء النيل . فهل يفيض .

(١٠)

عدت إلى سنجاى أذكره وأذكر لقاءاتنا وحـديثنا ، وعينيه اللتين كانتا تبحثان عني فى وقت من الأوقات . أين هما الآن . وبدأت أتخيل إمكانية اللقـاء .. قال لى ذات مـرة؛ سوف أحـضر إلى مـصر لأشـرب من نيلكم وأزور أهراماتكم . أليس من الممكن أن نلتقى حقاً . وملأتنى الفكرة حتى أنه هيئ لى مـرة وأنا أسيـر بمفردى بمحـاذاة النيل أننى رأيته . سنـجاى .. ركضت إليـه غير عابئـة بسيل السيارات المتـدفق وناديته .. لم يرد الرجل ولكننى قلت لنفسى ربما لم يسمع ندائى فوثـبت حتى صرت أمامه . تلون وجه الرجل بملامح التساؤل ثم الاستغراب فالاستنكار . لم يكن سنجاى . واعتـذرت بشـدة وشعـرت بالخجل من تصـرفى المتهـورهذا . وواصلت سيـرى . وأدركت أن سنجـاى الآن ليس إلا وهماً فى مـخيلتى ، سـراب خادع لاينبغى لى أن أجرى وراءه .

أذكر أنه فى ذلك اليوم أيضاً قـابلت شاباً رفع من درجة يأسى وأضاف إحباطاً جـديداً إلى إحباطاتى السابقة، لم تكن سـيارتى معى تركتهـا شبه مـهشـمة بجـانب رصيف البيت ، لاأدرى أناقلة أم أتوبيس اصطدم بهـا فأصابهـا إصابات عديدة ، فركبت الأتوبيس عائدة إلى بيـتى، وبالمصادفة

كان هناك مكان خال بجانب شاب صغير السن تبدوعليه علامات الإرهاق والتعب وشيىء من فقدان الوعي سألته إن كان مريضاً أويشكو من تعب أوشيء من هذا القبيل ، فقال. إنه متعب قليلاً لم أصدقه ولاأدرى من أين بستت لى الفكرة بأنه يتعاطى مخدرات . فهمست فى أذنه هل تتعاطى فقال أشرب معسل ، فقلت له هل يفعل المعسل دلك فقال عندما أشرب أكثر من ٢٠ حجراً

صمت لحظة وتفرست فى وجهه شاب لم يتعد العشرين من عمره ماالذى يدفع شاب فى مقتبل العمر لأن يبيد نفسه بهذا الشكل واصلت حديثى معه فأخبرنى أنه يعمل بمصنع لإنتاج البلاستيك وأنه يتقاضى راتباً مجزيا وينفقه كله على نفسه فأهله ليسوا فى حاجة إلى ماله لأنهم يعملون جميعاً .. فسألته لماذا إذن يبعثر وقته وماله على المقاهى وينتحر هذا الانتحار البطىء ؟ فاجأنى رده

- لايوجد شىء آخر أستطيع أن أفعله نعم أنا أنتحر

قالها ونبرة يأس صارخة تصدر من أعماقه

ياإلهى كيف يذبل الزهر من قبل أن يتفتح وفى غير أوانه كيف تتساقط أوراق الشجر فى فصل الربيع . كيف تتوحش الأغصان وتتشابك وتتسلل إلى البراعم فتجرحها .. كيف لشاب لم يبلغ العشرين بعد أن يتحدث عن الانتحار طلبت منه أن يقرأ أويشاهد التليفزيون أويمارس أى نوع من النشاط الرياضى فأجاب بأنه لايعرف القراءة والكتابة عندما كان بالمدرسة وهو طفل صغير لم يكن يتلقى إلا ضرباً مبرحاً فكره المدرسة

وهرب منها . أما التليفزيون فليس به مايفيد . وكان على حق..ولكنه أحيانا يلعب الكرة الشراب فى إحدى الساحات الشعبية

لم أجد ماأقوله فصمت .. ونظرت إليه نظرة عاتبة وسألته ألايفسد أجمل سنوات العمربهذا الشكل العبثى . ابتسم ساخراً وقال : أشكرك كنت أعلم أنه لن يستمع لنصحى وأنه فقط يجارينى فى الكلام حتى أتركه فى حاله . جاءت محطتى فسلمت عليه وقلت له: خدبالك من نفسك .. ونزلت .

أردت أن أحكى لأحدعن هذه المأساة . لم يكن أحد بالمنزل سوى أمى فحكيت لها ماحدث وقلت إننى أريدأن أساعده بشكل من الأشكال كأن أعلمه القراءة والكتابة مثلاً .

صرخت أمى فى وجهى قائلة : لم يبق إلا أولاد الشوارع اللى هتصاحبيهم كمان . وأنهت الموضوع . ولم أناقش ليس لأنى كنت أعلم مسبقاً أنها لن توافق على هذا المشروع ولكن لأننى خشيت إن فعلت ذلك أن يتعلق بى هذا الشاب فتتعقد الأمور . فأهملت الموضوع برمته وإن لايزال عالقاً بذهنى أمره .

ولاأدرى لماذا ذكرنى هذا الموقف بموقف آخر مشابه إلى حد ما حدث فى طفولتى .. أذكر أننى رأيت طفلاً بائساً يتسول فى الشارع وكان يبكى ويقول إنه لاأحد له لاأب ولاأم فعطفت عليه. كان اسمه سعيد وأحضرته معى إلى البيت وعندما رآه أبى قال : ماهذا ؟ فأخبرته بالقصة وسألته أن يعيش سعيد معنا لأنه وحيد وأنا ليس لى إخوة أصاب أبى الذعر

مماأقول ونظر إلى الولد شذرا وطرده خارج البيت .. أما أنا فتلقيت صفعة لم أتلق مثلها من قبل وهددني أبي : إن كررت مثل هذا الفعل سأقطع رقبتك .. فانتهى بذلك موضوع سعيد .

(١١)

بعد وفاة خالى مصطفى بدأ عدد أسرتي الكبيرة فى التقلص ، فقد ازدادت سرعة الصعود إلى السماء والهبوط تحت الأرض بمعدل شخص سنوياً .

ففى العام التالى لوفاة خالى ماتت عمتي شادية . تطلعت إلى صورة العائلة . هاهي طنت شادية تتأبط ذراع أبي .. لم تكن قد تزوجت بعد .. على شفتيها ابتسامة عريضة تكشف أسنانها البيضاء ، كانت ترتدى فستاناً قصيراً بدون أكمام وباروكة ذات شعر قصير على رأسها .

كنت حينها فى النادى أمارس رياضة الجودو، عندما رن جرس التليفون فى الصالة . كانت أمي. : تعالى حالاً عمتك ماتت .

- من ؟ عمتى .. من ؟

عمتك شادية ..

- طنت شادية .. مش ممكن .

عدت إلى البيت وسألت أمى فأخذتنى وذهبنا إلى عمتى .

دخلت غرفتها كانت ممددة على فراشها فى اتجاه القبلة وقد لانت

ملامحها ، لمستها . كانت دافئة لم تدركها برودة الموت بعد . حاولت أن أوقظها .لم تستيقظ . أبعدونى عنها وبدأت أشعر بأن الموت شىء بشع حقاً . كيف يموت الإنسان.. سؤال كان يلح علىّ ولم أجد له إجابة، غسلوها وكفنوها واستعدوا للخروج بها . وبدأ النحيب عالياً . أتذكر الآن أننى أحببتها جداً رغم أننى لم أكن أزورها إلا فى المناسبات . كانت آخر مرة رأيتها فيها فى عيدالفطر ،قدمت لنا كعكاً بدون سكر وترمس وألحت على أبى وأمى أن يأكلا،فقلت لها: أنا سآكل بدلاً منهمالن أكسفك، و أكلت وسعدت هى وقبلتنى كانت تحبنى كثيراً .

ثم ماتت . وظهر النعش ، وكأنماكانت مشتاقة إلى أمها فقدكانت تجرى وتسابق من يحملونها ، لم أستطع اللحاق بها ، أناديها فيصرخ الملك لير فى راسى .. هل الإنسان لاشيء أكثر من هذا ؟

ووقفت فى الطريق لاأدرى شيئاً . هل هذاهو الإنسان حقاً .. وأتساءل ثانية كيف يموت الإنسان .. ويلح السؤال .

اتصل أبى هاتفياً من الخليج وسألنا عن عمتى شادية بالذات . قلنا هى بخير ولم نخبره بوفاتها . ولكنه أدرك بحسه الغريزى فجاء بعد أسبوع من اتصاله .وعاد أبى ليجد عمتى قدلحقت بأمها فبكاها أبى كثيراً . كان يقول إنها كانت مثل أمه رغم أنها أخته الصغيرة ولكنها كانت طيبة وحنوناًجداً .

وأغلق التليفزيون وارتفعت أصوات قارئى القرآن وذهبنا إلى المدافن .

(١٢)

لاأدرى لماذا تتدفق المصائب مرة واحدة . فى غمرة أحزانى وتساؤلاتى فى ذلك الوقت ، جاءتنى سميرة لتزيدنى غماً ولتعمق فجيعتي. جاءت لتخبرنى أنها ستتزوج .

ماهذا الهراء ؟

- لايوجد خيار آخر أمامى .

- سميرةهل جننت ؟ الزواج بهذا الشكل ليس حلاً للمشاكل بل البداية الحقيقية لسلسلة مشاكل .

- منيرة .. لم أعد أستطيع تحمل القيود والضغوط التى يفرضها أهلى على لاأستطيع تحقيق ذاتى .. ليس هناك حل آخر .

- وستحققين ذاتك عندما تتزوجين!! سميرة أنت تهربين من مواجهة الحقائق .. ليست هذه هى الطريقة التى تتغلبين بها على مشاعرك تجاه حسين، والزواج لن يفك عنك القيود التى تتحدثين عنها أنت التى يجب أن تواجهى هذه المشاكل وتحاولى الخلاص منها . الحل ليس أن يأتى فارس ملثم على فرس أبيض ويخطفك على حصانه ويصعد بك إلى السماء ..

لاياعزيزتى الحرية لاتمنح بل تقتنص .

- قد لايكون الزواج أفضل حل ، ولكنه المتاح الآن .. أناوافقت.

- هانحن نعود إلى بدايات القرن !

لم أجد سبيلاً لإقناعها بالعدول عن هذا الحل السلبى الذى لاأعتبره حلاً بالمرة .. والتقيت بسهى وصفاء ويوسف وعلى وناقشنا هذا الزواج

لم يوافق أحد . وشعرناجميعاً بأن سميرة تخذلناوتخذل نفسهاقبل أى شخص آخر.سميرة الفتاة الثورية المتمردة لاتستطيع أن تواجه أهلها تنتزع حقوقها الإنسانيةالأولية منهم، وتتزوج شخصاً لايكافئهافكرياً وتنتظر منه أن يمنحها حريتها المسلوبة .. هل تحلم ؟ كيف وصلت إلى هذه المرحلةمن اليأس .

- أخشى على نفسى من التفكير العبثى .. أنا لاأرى فائدة لأى شىء الآن، وفقدت ثقتى بنفسى وبالآخرين ..

- تجربة حب فاشلة ياسميرة لاتعنى نهاية الكون .. لى نصيب وافر من التجارب الفاشلة ومع ذلك لايعتصرنى هذا اليأس ولاتصيبنى هذه العبثية التى تتحدثين عنها ..

لاأدرى ما الذى أصابها .. أصبحت تنتابها نوبات اكتئاب فتعزف عن الناس وعن أصدقائها ولاتحدث أحداً .. أحياناً تبكى وأحياناً تضحك بلاسبب وأصبحت تسير وفق الأصول التى يفرضها أهلها عليها دون تبرم أوتذمر .. حتى قدرتهاعلى الاعتراض فقدتها .. أخشى عليها من هذا التدمير للذات .. سميرة لم تكن هكذا فى يوم من الأيام .. حسين

هوالسيب أحبته كمالم يحب أحداً من قبل ولكنه ارتبط بفتاة أخرى .. لماذا هى لاتدري.. ولكن حسين شخصية مليئـة بالتناقضات وسميرة لم تستطع أن تقبله على ماهو عليه ، كانت مستعدة أن تعارض أهلها من أجله ولكنه خذلها ..

وتم تحديد موعد الزفاف . وذهبنا لنحتفل بهذا العرس الحزين، لم تكن سميرة سعيدة بطبيعة الحال ، وإن حاولت إخفاء مشاعرها الحقيقية، وضعت القناع. واستسلمت لمراسم الزفاف وزادتها فرقصت بنفسها فى الحفل .

– إيه اللى انتم لابسينه ده .. انتم فاكرين نفسكم فى فرح بحق .علق يوسف على ملابسنا الاحتفالية خاصةأنا وسهى فقلت له: لسنافي جنازة أنه فرح ..

لكنه كان جنازة حقيقية لنا .. ودعنا فيها رفيقة درب لم تعد

تزوجت سميرة .

– سميرة هل أنت سعيدة ؟

– لم أعد أفكر فى هذه الأسئلة ..

– هذا ليس رداً ..

ولم أكن فى حاجة إلى أن أسمع ردها ، كانت الإجابة واضحة على ملامح وجهها وملامح حياتها ..

كانت تقول إنها ستمتلك قدراً من الحرية بعدأن تتزوج وتستطيع أن

تمارس أنشطتها المختلفة وتواصل طريقها الذى حددته من البداية .. تزوجت فصارت لا تخرج إلا مع زوجها إلى أقاربه أو تجلس بمفردها فى البيت وفرض عليها الحجاب وقبلت .

لا أستطيع أن أصدق أنه لن يجيء الوقت الذى تفيق فيه سميرة وتعود لطبيعتها الأولى .. أن تثور على هذا الوضع المهين لإنسانيتها .. ولكن لم يحن الوقت بعد ..

أخشى على سهى أن تنتهى هذه النهاية هى الأخرى .. ولكن هناك فرق فسهى تعلم أن مدحت لايحبها وتمنحه كل مايطلب على أمل أنه فى يوم من الأيام قد يتغير ويحبها حباً حقيقياً ..

- سهى ألن تندمى إذا لم تصلى إلى هدفك فى النهاية ؟

- لا لن أندم لأنى أستمتع بكل دقيقة أقضيها معه .

- لكنه لايحبك .. وأنت تعلمين فلماذا تستمرين ؟

- لأنى أحبه ..

لافائدة من الحديث مع سهى . تحبه وكفى .لماذا أستغرب ألم يكن هذا منطقى فى يوم من الأيام .. لن تغير أفكارها.. ليس الآن على الأقل .. أما مستقبلاً فلا أحد يعلم .. وهل كان أحد يتخيل أن تتزوج سميرة بهذا الشكل وأن تتخلى عن مبادىء آمنت بها ودافعت عنها .

(١٣)

ثم حـان الدور على جدتى التى وددت لو تعـيش مدى الحـياة ، فـصم ظهرها موت ابنها الأكبر وأزهق روحـها موت ابنها الأصغر ، وبين الموتين كانت تسـتعد للخلاص من أسـر الدنيا لترحل إليهـما .فعل خالى مـحمد المستـحيل لإنقاذها ورفض أن يـصدق أنها سـتموت ، كل الدلائل الطبية تشير إلى ذلك، ولكنه لعننا والأطباء جمـيعاً .. لـم تكن أمه فقط كانت كل شيء فى حياته.. لم يفترقا أبدا ، هـكذا قال لى بعد أن ماتت . قال بعد أن تغادروا البيت كلكم لايبقى سوانا نحن الاثنان نتحدث معاً .

أتمنى لوكنت قد قـضيت معهـا وقتاً أطول مما قضيـته .. لـم أكن أحب زيارة المرضى كـثيراً .. وقـد أنهكهـا نهجان رئـتيهـا ولـم تعد قـادرة على التنفس . وكانت خالاتى يتناوبن المبيت مـعها ، كنت أحياناً أذهب مع أمى وإن لـم أبت معـها إلا ليلة واحدة فى الأسبـوع الأخير الذى سبق وفـاتها. ساعدتها فى الذهاب إلى الحمام وسألتها إن كانت تريد شيئاً آخر .

قـالت : نامى أنت . حـتى آخـرلحظة فـى حيـاتـها لـم تكن تريد إيلام الآخرين . ثم نقلت إلى المستشفى للمـرة الأخيرة لتغادرها إلى المدافن قبل أن تمر اثنتا عـشر ساعة على دخـولها . سألها الجـميع ازيك يانينة ودون أن

تنظر فى اتجاهنا كانت تقول « الحمد لله » بصوت خافت غير واضح خرجت من عندها أقول لنفسى لن تعيش حتى الصباح .

ورن التليفون في منتصف الليل .حاولت أمي أن تقنع نفسها بأن المكالمة من أحد أصدقائى ، ونظرت إليّ ثم رفعت السماعة كانت خالتى رينب تلقى بثقل الخبر عليها كأنها تريد الخلاص منه تخور فوى أمى فاحتضنتها وأقول يرحمها الله   استراحت

وذهبنا جميعاً إلى البيت الكبير الذى لم يعد كبيراً. تضاءل حجمه وانكمش .. هذا البيت الذى كثيرا مالعبنا فى فنائه وفوق سطوحه «الأولى » و «الاستغماية » و «عسكر وحرامية » والذى كنا نتوه فى دهاليزه وممراته وغرفه العديدة .. هذا البيت الذى كان يدوى بضحكاتنا وصراخنا الطفولي وخناقاتنا البريئة وشقاوتنا ، يذكرنى الآن بالأطلال تسكنها الأشباح، لاتسمع فيه سوى سيرة الموت والنحيب ..انقضت الأوقات السعيدة .

وجدت خالي محمد جالساً على الكرسى بجانب باب غرفته واضعاً رأسه بين كفيه غير مصدق .. رفض لآخر لحظة أن يصدق عينيه وآمن بقلبه . ولكن .. قضينا الليل ساهرين إلى آخره . وفى الصباح ذهبنا إلى المستشفى لاستخراج الجثة ..جدتى صارت جثة .. جدتى صارت جثة أقولها وأبكى وأبتسم فى نفس الوقت . حملتها سيارة تكريم الإنسان ، وتقدمت الموكب .صلوا عليها .. ثم إلى المثوى الأخير

وداهمنى السؤال   كيف يمكن لروح كانت فى جسد بسيير على

الأرض ويحيا أن تصعد وتغادر مكانها ؟

كيف يمكن للروح أن تخون صاحبها الذى ألفته وتتركه جسد بلاحراك يحمل على ألاكتاف ليلقى به فى قبر مظلم ؟

كـيف يمكن لـلجسـد الناطق فـوق الأرض أن يهـمـد ويسكن تحت الأرض؟

ورأيت خالى يندفع وراءها لايريد أن يتـركها .. لم يتركها فى حـياتها أبداً فكيف يتركها الآن .

وجذبناه بالقـوة واحتضـنته ويلح السؤال فى ذهنى ويدمـى قلبى كيف يموت الإنسـان ؟ وكـيف يتـحـول فى لحظة واحـدة إلى العـدم .. ولماذا ؟ ويصيح لير فى أعماقى هل الإنسان لاشىء أكثر من هذا ؟

نظرت إلى الصـورة نظرة نهـائية ووضـعتـهـا بين الصور الأخـرى فى الحقيبة الصغيرة .

(١٤)

عندما اقترب العام من نهايته ، بدأ كل منا يستعد لأداء امتحانات نهاية العام بقلب مثقل وعقل مشتت . تغيب يوسف عن الكلية لعدة أيام متتالية فخشينا أن يكون قد أصابه مكروه أوأن يكون متعباً . وقررنا أن نذهب إليه فى عصر اليوم التالى . فتفرقنا على أن نلتقى ظهر الغد ثم نذهب جماعة إلى بيت يوسف ونسأل عليه .

عدت إلى منزلى ساهمة أفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث ليوسف ، فليس من عادته الانقطاع عن أصدقائه هكذا لعدة أيام دون إخبارنا أودون سبب واضح . حاولت أن أنام .. لم أستطع وبقيت مؤرقة فقررت ألا أنتظر حتى عصر اليوم التالى وذهبت إلى بيت يوسف فلم أجده ..

- هو كويس ؟ سألت أمه .

- سألت عليك العافية يابنتي .. أيوه كويس وهو عند على بيذاكر..

بيذاكر !!

رنت الكلمة فى رأسى .. ابتسمت رغماً عنى وكدت أردد الكلمة وراءها لكنى كتمت دهشتى وقلت ..

-صحيح الامتحانات على الأبواب وربنا يوفقه ويوفقنا كلنا

لماذا لم يخبرنا على إذن أن يوسف عنده ؟ ويوسف بيذاكر ! من أمتى ؟!

وعلى أيه الاستعجال ..مالسه بدري .. صحيح هى آخر سنة له ولكن ليس من عادته النجاح من أول دور ، لازم يعيد السنة مرة ولااتنين على الأقل !

ذهبت إلى على ..ضغطت على جرس الباب وانتظرت برهة لم يبدو أن أحداً سمع صوت الجرس ، فكررت المحاولة وطرقت الباب أصغيت السمع . لحظات مرت قبل أن يفتح على الباب مترنحاً ذائغ العينين، قابلتنى رائحة الخمر والعرق والدخان .. ارتبكت قليلاً وبدا علىّ التردد .

- ماتتفضلى ولا خايفة ؟

- مش مسألة خايفة .. لكن ..

- اتفضلى .. اتفضلى ..

فتفضلت ودخلت ..

- دى منيرة يايوسف .. تصور!

كانت الصالة شبه معتمة إلا من ضوء خافت ينبعث من أباجورة كانت موضوعة على منضدة صغيرة فى أحد الأركان بجانبها تراصت بضع زجاجات بيرة فارغة ومنفضة سجائر بها أعقاب سجائر كانت ملفوفة .

- حاجة شاعرية خالص !!

- منيرة ..

هتف يوسف باسمى وقد انبعث نبرة سخرية عالية من كل مقاطع

اسمى وهو ينطقه ممدوداً هكذا ..

قام مرحباً وفاتحاً ذراعية .. التفت إليه ، كان غريب الشكل وقد طالت لحيته وبرزت عظام وجهه

- أهلا يايوسف ازيك ؟

- ازيك انت عاملة أيه ؟

- افتكرتك مريض علشان كده جيت أزورك ولكن واضح أنى فهمت غلط .

علق على على كلامى ساخراً .

- عادى ماانت كده على طول إيه الجديد يعنى .

رمقته بنظرة حادة دون أن أقول شيئاً .. ولكن على عنده حق فعلاً

اتفضلى يامنيرة .. واقفه ليه .

جلست ونظرت إليه أتفحصه .. لم يتهرب من عينى بل حاول أن يثبت عينيه الزائغتين فى عينى وحدق فيهما بكل برود

- ماتتكلمى أنا سامعك . مفاجأة مش كده .

- يوسف .. يوسف

فتحت فمي وأطبقته ثانية دون أن أقول شيئاً .لم يطاوعنى الكلام فسكت

أردت أن أقول له حرام حرام أن تهدر نفسك أن تذبح إمكاناتك بهذا الشكل يوسف أنت شاعر حرام أن توئد نفسك

كنت أريد أن أقول أشياء أخرى ولكنها اختنقت داخلى ولم أستطع أن أنطق بشىء

- عارف هتقولى إيه .

- يوسف .

سكت ثم تناول سيجارة ملفوفة استنشقها ورشف بضع رشفات من كأس كان لايزال عالقاً فى يده . استرخى قليلاً فى جلسته، ثم انسكبت الكلمات من فمه وانصت ..

ياغنوتى اقصرى

ياغنوتى طولى كل العباد

ياغنوتى فسرى .

ياغنوتى قولى حلم الولاد

أهلى عباد من العباد

بيشقوا عشان الزاد

لكنهم مش عبيد

وأنا غنوتى للناس

مش دندنة مش نهنهة مش آهة مش تنهيد

أنا غنوتى موال

أنا غنوتى موال أنا غنوتى موال أنا غنوتى موال

موال لحلم عنيد موال لحلم عنيد

توقف ذاغت عيناه قليلاً ثم طأطأ رأسه وثبت بصره على كأسه الفارغ .

مش فاكر اللى بعد كده مش مهم

آه افتكرت

كتبتك على جبين القمر قدرى

وزفت لك غناوية

ومديت لك خطاويه

ولما هانت السكة

وقلت هيجى بالضحكة

نخيل أرضك

على أرضك دبل شجري

رسمتك على آخر المدى آخر

وسكنت فى أشعارى

وقلت أخلص يامشواري

ولما هانت الأوجاع

للم قلبى كل شراع

سكن أرضك

وفوق أرضك بقى مسافر

ورغم الليل وآلامي

ماتنكسريش ياأحلامي

أكيد فى يوم هيجى يوم على أرضك

ولو كان بعد أيام ..

انكسر صوته وهو يؤكد هذا التأكيد الأخير وتساقطت دموعه وهو يشير بيده أنه هيجى اليوم ده .. سقط منا على الأرض وانسكب بقية الكوب على ملابسه . حملته أنا وعلى إلى الغرفة الداخلية وأرحناه على الفراش، نظرت إلى على دون أن أقول شيئاً وغادرت المكان .

(١٥)

حصلت على الليسانس بتقدير مرتفع وكذلك سهى وسميرة . وبقى يوسف وعلى للإعادة بمحض إرادتهم (إذا جاز التعبير) فقد تغيبا عن حضور بعض الامتحانات معلنين بذلك رغبتهما اليائسة فى البقاء .

لاأدرى لماذا لايدركان أن العمر قصير أولعلهما يدركان .. ولكن مافائدة الإدراك ؟

بلغ أحدهما السابعة والعشرين والآخر نحوها «لسه بدرى العمر أمامنا طويل» هكذا يقول يوسف بتهكم دائماً .. أعلم أنه يدرك أن العمر قصير . وربما يكون هو أكثرنا من يدرك ذلك جيداً . ولكنه كمن شدت أطرافه على صليب من الحديد الساخن لايملك إلا أن يفتح فمه لينطق ببعض الكلمات أوربما أصوات من حين لآخر كلما تراءى له ذلك ..

العمر قصير . وماذا بعد .. الأمر أصبح سيان بالنسبة له وربما بالنسبة لنا أيضاً .. ليكن .

عينت بإحدى الهيئات الحكومية . أذهب صباحاً إلى عملى، وأقرأ مساء حول محنة الإنسان المعاصر فى الشرق والغرب موضوع دراستى

أحياناً أخرج مع أصدقائى ونجلس بأحد المقاهى نتحدث فلا يزيدنا الكلام إلا يأساً على يأس ونخرج منه بأنه لافائدة .. الوضع سيء، والبديل أسوأ منه، إذن فليبق الوضع السائد بمساوئه، إذن لافائدة هى دائرة مغلقة تحاصرنا . وحتى لاتقتلنا الحيرة ويبتلعنا اليأس نخرج فى نزهة نيلية نستأجر مركباً شراعياً ونناجى النيل مناجاة جماعية

ياتبر سايل بين شطين ياحلو ياأسمر .

لولا سمارك جوا العين ماكانش نور ..

ياحلو يا أسمر ..

ويتمايل المركب يمنة ويساراً فيصرخ يوسف خوفاً من الغرق فنتندر عليه ونضحك وخوف حقيقى يداخلنا ،خوف من المجهول .. خوف من المستقبل .. هذا الذى لانستطيع تلمس معالمه .

لابد أن هناك صورة لهذا اليوم . فتحت الدرج مرة ثانية وقلبت بين بقية الصور . هاهى .. فعلاً .. يوسف كان خائفاً جداً وبقيتنا يضحك وسهى ترقص .. صفاء هى التى بدت شاردة .

لم تكن صفاء فى نقائها المعهود ، بدا عليها قلق عميق .. حاولت إخفاءه قدر استطاعتها حتى لاتفسد علينا بهجتنا المؤقتة ، ولكن قلقها وحزنها تبدى فى عدم اندماجها كلية معنا وفى نظرتها الساهمة الممتدة إلى الأفق .

- ماذا بك ياصفاء ؟

-قدمت استقالتى أوبمعنى أدق اضطررت لتقديمها قالت بنبرة هادئة

وببساطة شديدة .

- تانى ياصفاء

- بدت الدهشة على وجوهنا وبادرها يوسف بالسؤال الذى بدا أول الأمر استنكارياً لماذا ؟ هل رفضت أن تقاسمك المديرة فى عائد الدروس الخصوصية ؟

ردت صفاء لأنى رفضت أن أعطى دروساً خاصة بأجر يا يوسف

لأنى أردت أن أقدم شيئاً لهؤلاء التلاميذ الذين لايستطيع أهلهم دفع مقابل لكل مادة يأخذون فيها دروساً

قال على : طبعاً أنت عايزة تعطى دروس مجانية والمدرسين يسكتوا على ذلك .. طبعاً لازم يبقوا ضدك ويحاربوك .. لأنك فى رأيهم بتحاربيهم فى رزقهم .. رغم أنك لاتأخذين أجراً وطبعاً المديرة أيضاً تضررت لأنها كانت تقاسم المدرسين فتيجى سيادتك تأخذى كل التلاميذ عندك هيشحتوا هم بقى

- على عنده حق .. قالت سهى

ولكن صفاء كانت فى غاية الإحباط . فهذه هى المرة الثانية التى تضطر فيها لتقديم استقالتها بسبب تلك الأفكار التى يقولون إنها عفى عليها الزمن . المرة الأولى كانت فى إحدى مدارس اللغات الراقية

حاولت صفاء أن تنشر آراءها ضمنياً من خلال ماتقدمه من مادة علمية العدالة الاجتماعية ، المساواة ، حرية الرأى جاء أحد أولياء الأمور ثائراً يشكوها إلى المديرة قائلاً إن ابنته جاءت تحدثه عن الفقراء وعن

مساعدتهم.. فما كان من المديرة إلا أن طلبت من صفاء تقديم استقالتها لأن صفاء كما قالت المديرة تحاول قلب نظام المدرسة وزرع أفكار سامة فى رؤوس التلاميذ .

عندما قررت صفاء أن تلحق بأختها التى تعمل فى الخليج لم يستطع أحد منا أن يقول لا أوحتى يجادل .. لكننا شعرنا بالخسارة .. خسارة فادحة وسافرت صفاء .

امتلأت الحقيبة الثانية عن آخرها دون أن تسع كل الأشياء التى ودت منيرة أن تحملها معها .. اضطرت لإخراج بعض الملابس كى تستطيع أن تغلق الحقيبة ، قطبت جبينها وهى تنظر إلى الفستان القصير الوحيد الذى تملكه .. كيف لم تأخذ بالها منه وهى تضعه بالحقيبة .

الحقيبة الثالثة

(١٦)

قررت أن تستعين بحـقيبة أخرى صغـيرة . الحقيبة الثالثـة .لتضع بها ماتبقى من ملابس وغـيرها .. أول شيء وضعته هو ذلك الفستـان القصير الذى قابلت به أحمد لأول مرة .

كنت فى حـالة يرثى لهـا من الضـعف والحـيـرة والتخـبط الذى عـادة مايـصيبـنى على فترات تقصـر أوتطول على حسب الحـالة .. أبحث عن المستقبل ، وكعادتـى أختار الطريق المسدود بإرادتى .. كنت فى هذه الحالة عندما قابلت أحمـد عبدالحميد .. أحد المثقفين البـارزين . وكنا قد التقينا من قبل دون أن نتبادل الحديث فى عدد من اللقاءات الثقافية العامة

بهرنى أحمـد بذكائه وقدرته على التحلـيل العميق وانشغاله بـالقضايا العامـة وبخفة دمـه .. وبنظرة تائهة دائمة الـبحث عن جديد .. التـقينا فى أحد مقاهى وسط البلد ، جلسنا نحـتسى الشاى وندخن السجائر .. نقلب الأمـور ونغيـر الحـديث لنصل فى النهـاية إلى بداية الكـلام والحاجـة الي التمـاسك من أجل التغـيـر ، الحاجـة الى بداية جديدة وأتسـاءل كيف ونحن لانملك حق التغيير ولانملك وسائله وأصبت بالعقم وبدا ذلك على وجهى فأمسك أحمد بيدى وقال لاتيأسى

قلت : لطيفة الزيات قادت الحركة الطلابية فى الأربعينات ونحن نتحدث اليوم عن حجاب المرأة وعودتها إلى البيت .. هل يتقدم الزمن أم يتخلف ..

كانت الأمور واضحة وحاسمة تعرف من هو عدوك وتحاربه .. وكان هناك هدف مشترك وعدو واحد أجنبى ..

هل تتصور أن لى جاراً بعد أن تخرج من كلية الهندسة أطلق لحيته وارتدى جلباباً وافترش الأرض أمام أحد المساجد ليبيع البخور والروائح والأعشاب ويقول مال الحكومة حرام .. لما كنا أطفال كنا بنلعب لعبة العروسة والعريس معاً والآن يرانى فيدير وجهه ولايلقى حتى بالتحية .

رمقته وهو يراقبنى اتحدث والسيجارة فى فمه لاتكاد تنتهى حتى يشعل غيرها ، حتى امتلأت منفضة السجائر بأعقاب مضطربة مهزوزة .

وغادرنا المقهى على أن نلتقى ثانية .

لا أنكر أننى وجدت نفسى منجذبة إليه وازعم أنه أيضاً انجذب إلىّ ..

- هل نتمشى قليلاً على النيل ؟

- نعم أحب ذلك ..

ركبت سيارته وانطلق على كورنيش المعادى ولم أكن أعرف بالضبط إلى أين يتجه بى فداعبته ..

- إلى أين تختطفنى ؟

- المعادى ..

- سيصلك خطاب شكر حار من أهلى ..

فضحك أحمد وقال : لابد أنك تسببين لهم المتاعب

قلت : نعم أنا أصدمهم باستمرار ولكن ليس عن قصد

لكنها طبيعة الأمور هذه الفجوة بين الأجيال المشكلة أنهم لايسايرون العصر .. ولايكتفون بذلك بل يطلبون منى أن أعيش بمقاييسهم هم ويتناسون أن الأمور تتغير بسرعة قاسية وإن المفاهيم والقيم أصبحت نسبية وعلى كافة المستويات ..

أوقف السيارة على جانب الطريق .. لنتمشى قليلاً ..

وفوجئت به يتأبط ذراعى .. نظرت إليه متسائلة ..فقال سنسير كرجل وامرأة وليس كرجلين .. لم أعترض ..

كان القمر بدراً وانعكس ضووءه على النيل السائر بجانبنا يلاحقنا بأشعته الفضية العميقة النقية ..سألنى عن الحب .. قلت أحببت شاباً هندياً فى فترة صباى .. وحكيت عنه .. يسرنى أن أحكى عن سنجاى دائماً

قال: والآن .

سألته : لماذا تسير معى الآن ؟

- ماهو تفسيرك ؟

- بالنسبة لى أعتقد أن هذا عرض لاحتياجى الشديد إلى الحب . إلى الحياة .. ولكن أنت ماالذى يدفعك إلى الخروج معى ؟

- لعله نفس الاحتياج .

- ولكنك متزوج ولك أولاد .

صمت قليلاً ثم تنهد قائلاً : هذا لايعنى شيئاً .

وأحسست بالخطر فقلت ولكننا لايجب أن نحب بعض .. ووافقنى واتفقنا على أن نظل هكذا .. ولم أعرف ماذا تعنى هكذا ..كانت هذه أول مرة أخرج فيها مع رجل أتركه يتأبط ذراعى ويلف ذراعه حول خصرى ونسير معاً على النيل ونتأمل القمر.. قلت له ذلك .. فبدا عليه عدم التصديق وإن سره ذلك بطبيعة الحال .

أوصلنى إلى المنزل . وقبل أن أغادر السيارة طلب منى أن أقبله ففعلت وضحكت .. وقلت له : لقد أصبحنا خواجات خالص .قال : ألست أوروبية الثقافة .. وتواعدنا على لقاء تالى . لم أنم ليلتها .. كنت كالمنومة مغناطيسياً .. هذه الأشياء جديدة تماماً علىّ هل كنت أحلم .. لا لم أكن أستطيع حتى لأحلم بهذا اللقاء .. على بساطتِه إلا أنه ترك أثراً كبيراً فى نفسى ، ولم أصدق حقاً أننى خرجت مع أحمد عبدالحميد وسرنا سوياً على الكورنيش متشابكى الأيدى ، وأننى قبلته قبل أن أتركه .. جديدة على هذه المشاعر المختلطة غمرنى إحساس طاغ بالسعادة لم يكتمل أبداً .. ولكنه متزوج .. باغتتنى العبارة تصيب سعادتى فى مقتل .. لابد أنه غير موفق فى زيجته .. وإلاماخرج معى .. كنت ساذجة. ثم مضى أسبوع

على هذا اللقاء الحلم .. وتحمست للقاء التالى حتى أتيقن من أن اللقاء الأول قد حدث بالفعل .. تقابلنا فى مقهانا المعتاد وتبادلنا الحديث قليلاً ثم خرجنا سوياً نتمشى على النيل القريب بجانب حديقة الأندلس

الشهيرة .. وأذكر أنه أذهلنى إن كل الثنائيات التى كانت تسير على النيل مثلنا أحد طرفيها محجب ، وكان شكلى نشاز فى وسطهم فأعربت عن قلقى .. قال أحمد لاتقلقى ستجدين من هى مثلك الآن ، وقطعنا شوطاً إلى أن رأيت فتاة مثلى سافرة الرأس وترتدى فستاناً قصيرا فقلت هناك واحدة حقاً

وضحكنا

كنت أعبر الشارع بطريقة جنونية لاأنتظر السيارات أبدا هى التى يجب أن تتوقف من أجلى وكادت إحدى هذه السيارات أن تصدمنى ولم أعبأ .

قال أحمد : ستموتين بهذه الطريقة .

فتنهدت قائلة : وماالذى سيتغير مت أم عشت لن يحدث شىء.

قال أحمد : ستخسر البلد واحدة غير محجبة

وضحكت .. كان لأحمد قفشات ذكية لاذعة

- ممكن أسألك سؤالاً شخصياً جداً.

- نعم .

- هل أنت سعيد فى حياتك الزوجية ؟

- أحياناً وأحياناً ..

أحياناً تصيبنى حالة تمرد على الواقع بكل مكوناته بما فيها من روجتى وأولادى وأهرب من هذا الواقع بإقامة علاقات حديدة على فترات

متباعدة ..

- أنا إذن حلقة فى سلسلة .

- هل تحبين الترمس .

- نعم .

اشترى أحمد قرطاساً من الترمس وجلسنا على حافة السور .. ملأ كفه وتناولت حبات الترمس من يده وبدا شكلى كالحمامة التى تلتقط الحبوب من يد صاحبها الذى يطعمها .. كنت سعيدة .. واصلنا السير .. وفى طريقنا حاولت عجوز أن تبيع لنا حلوى وأخذت تحلف أحمد بالتى يحبها التى مفترض أنها أنا .. فقلت لها ياسيدتى هو لايحبنى .. لايحبنى .. وابتعدنا عنها وقلت لأحمد تريد أن توقعنا فى الخطأ .. فقال : ليس الخطأ أنه المحظور ..

- لماذا نخرج معاً إذن ؟

انفجرت غاضبة وإن لم أعرف سبب غضبى .. لقد اتفقنا أننا لن نحب بعض وقلت له إننى لاأريد أن أحب .. لاأريد لحياتى أن تتمحور حول شخص يصبح له الحق فى إسعادى أوإتعاسى .. لا .. لاأريد ..

ولكنى غضبت لقوله هذا .. إذن ما الداعى لخروجنا معاً .. أنا لست من الفتيات اللاتى يقضين وقتاً طيباً ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد .. أنا أبحث عن الحب وإن زعمت العكس .

وهكذا لم أكد أشعر بمذاق الثمرة المحرمة حتى انفلتت من بين أصابعى .. لم تكن التفاحة ..رعشة قلب موصود .. فى شتاء بارد .. فى ليل

موحش .. فـى ظلمة لامتـناهية .. رعشـة قلب حى موءود .. عـزفت لحناً قصيراً للحياة .. للحظة لـم تكتمل ..

زفرت الهواء بعمق ونظرت إلى الحقيبة وإلى الأشياء المتبقية .

الجوارب .. الأحذية .. وحقيبة أوحقيبتان لليد .. وساعة واحدة

(١٧)

لم يحبنى أحمد عبد الحميد ، ولكنه منحنى لحظات من السعادة الحقيقية .. منحنى الحياة ولو للحظات قصيرة غير مكتملة .. استطاع أحمد أن يشبع تعطشى الشديد لمجرد الإحساس بالحب ، للإحساس بأنه لاتزال توجد عندي مشاعر مدفونة فى حاجة إلى من ينتشلها من سباتها .. يكفى أنه أيقظ مشاعر ظننت أنها قد جفت وذبلت .. وقد شكرته على ذلك فيما بعد حينما قرر هو ألا نستمر فى هذه العلاقة وذلك حرصاً علىّ كما قال . لم أحزن .. ولكنى استشعرت الخسارة .. خسارة ماكان يمكن أن يكون برغم استحالته من الأساس .. فقلت لنبقى أصدقاء على الأقل .

وأقنعت نفسى بأن هذا هو الصواب ، وأنه حسم بذلك تناقضاً أخلاقياً داخلى كان يؤرقنى وإن لم يعنه كثيراً .. كنت أعتقد بأنه لا يجوز لرجل متزوج أن يقيم علاقات أخرى .قد يكون ذلك أمراً طبيعياً ولكنه ليس أخلاقياً .. كنت ابرر موقفه بأنه شيء طبيعى أن يميل الفرد إلى التجديد والتغيير فى حياته إذ أن التعود على الشيء يفقده أهميته ودلالته فيما بعد كما عبر عن ذلك شكلوفسكى فى مقال له عن تقنيات الفن ، والفن مشتق من الحياة .. إذن فالتجديد أمر صحى بل ومطلوب .. ولكن لم أستطع

تقبل منطقى هذا كلية .. وظل شيء يشب داخلى ويقول لاخطأ ..معايير الخطأ والصواب كانت نسبية ولم تكن خارجية إنما تنبع من داخلى .. ألا يمكن أن أكون مخطئة ؟

ظل أحمد عبدالحميد بداخلى ويبدو أنه لم يكن جاداً حقاً فى قطع علاقته بى . سألنى فيما بعد كيف استقبلت قراره بقطع العلاقات بيننا فأخبرته أننى لم أحزن كثيراً ، وإن استشعرت الخسارة . أحمد الله لدى قدرة عالية على تحمل الصدمات العاطفية بل على قهرها ..

- هل لازلت تريدين أن تحبى ؟

- لا .. قررت ألا أحب وألاأحتاج إليه نهائياً .

- منتهى القوة .

جلسنا فى أحد المقاهى . كان يبدو عليه الإرهاق والتعب . وشعرت أنه ربما يكون فى حاجة إلى . تناول يدى ووضعها فى يده . قلت وسيجارة مشتعلة بين أصابعى : سألسعك بالنار .

فنظر إلى نظرة استفهام .

فأضفت: ثم اكسر أسنانك

ابتسم أحمد وقال وبعدين

قلت: ثم أحطم رأسك مثلاً .

فقال أحمد: وبعدين، يعنى عايزة توصلى لأيه ماالهدف من كل دلك ؟ فتطلعت إليه وقد فهمت السؤال جيداً . وسحبت يدي من يده .. غادرنا المقهى . ولم تكن معى سيارتى فأوصلنى هو.

وفى الطريق قلبنى عدة مرات وقبل يدى .

قلت ماكل هذا الحب فضحك وترك يدى ليغير السرعة .

قال : وأنت لماذا تتجاوبين معى؟

قلت : لأن ذلك يسعدك .

وبدا أنه سر لهذه العبارة فحمل يدى إلى فمه وقبلها ثانية .

أشكرك ..

وأضفت ، إنها نزعة إنسانية تنتابنى أحياناً .. ولكن لاتعول عليها كثيراً، فأنا متقلبة وأحياناً أكون متوحشة وشرسة شراسة الحيوانات البرية فخذ حذرك .

قال: مضى زمن طويل قبل أن أقابل فتاة مجنونة مرة أخرى .

- لم تر الجنون بعد ..

وتحيرت في أمرى .هاهو يعود ثانية لماذا لاأقاومه . لماذا أتجاوب معه .. لماذا أتبعه .. أخشى أن أكون أحببته دون أن أدري .. هل يحب الإنسان دون أن يشعر وماذا لوأنى أحبه .. لن أمنع نفسى سأمنحها فرصة للسعادة ولوللحظات معدودة .. هاأنا أكرر نفس الخطأ وأنا أعى .. أحب سنجاى ولاأهتم بما يأتى بعد ذلك .. أحب عبد الرحمن ولا أعبأ بالمستقبل .. وهاهو أحمد أهرع إليه وأنا أعلم أنه لا ولن يبادلنى الحب . ولكنه الطريق المسدود الذى يقابلنى فأسير فيه بإرادتى ووعيى .

وقررت أن أعيش الحياة كما تأتى ودون تخطيط .. قررت أن أعيش

حاضـرى فالمسـتـقبل مـجهـول وقد لايكون أفـضل مما أنا فيـه حاليـاً فلم لاأقتنص اللحظـة الحلوة وأعيشـها بإخلاص .. وبدا لى أن مـاأقول يندرج تحت مذهب اللذة أومـذهب النفعية .. وهى مـذاهب لم أكن أؤمن بها من قـبل .. كيف يتـغير الإيمـان بهـذا الشكل .. وكيف لـثوابت ومطلقـات اعتنقتها لسنوات أن تتداعى فى ساعات .

وبناء على هذا القرار الذى اتخذته توالت لقاءاتنا وإن اتسمت بالتقلب الحاد من حـالة إلى نقيضـها وعشت اللحـظات الحلوة كاملة كمـا تجرعت مرارة اللحظات التعسة أيضاً كاملة ٠

واكتشفت أننى أدور فى فـلكه هو لافلكى أنا .. وأننى لاأمتلك نفسى كسابـق عهدى .. كلمة منه قـد تسعدنى غاية السـعادة أوتثير غـضبى إلى أقصى درجة .. أهملت دراستى وأصدقائى وانصب تفكيرى حوله وإن لم أحتل أنا أصـغر جـزء من تفكيره .. لم ألوم نفـسى الآن .. الست أنا التى اخترت وقررت السير فى طريق مسدود .. سنجاى .. أين أنت الآن ؟ لماذا أعود إليـه دائماً عندما أنهزم .. هل أحـتمى به .. هو السبب فيـما وصلت إليـه .. لاليس هو السبـب بل أنت .. سنجاى لم يـفرض عليك أن تبـقى عليه فى قلبك وذاكرتك مدى الحياة .. اختار طريقـاً جديداً مثمراً سار فيه وبقيت أنت فى ذات الطريق القديم تتخبطين .. فإلى متى ؟

(١٨)

تغيبت عن موعدى مع أحمد مرتين، ثم ذهبت إليه ، وسألنى عن سبب الغياب . قلت لم يعد هناك فائدة ، وبالتالى لاداعى لحضورى ، وغيابى لن يجعل الأمر مختلفاً . تجاهل أحمد تعليقى وسألنى :

– لماذا لم تحضرى الندوة السابقة . كانت مهمة .. ناقشنا فيها موضوع التبعية الحضارية والدور الذى يجب أن يلعبه المثقفون العرب .

لم أشعر بنفسى إلا وأنا أقهقه عالياً والدموع تتكثف فى عينى ..

– كلام .. كلام .. كلام .. لاطائل من وراءه .. يبدو أن مقولة أن العرب ظاهرة صوتية تنطبق فعلاً .. لمن توجهون الخطاب .. لأنفسكم .. أنتم تتحدثون وتسمعون صدى صوتكم ولاأحد يسمع ولاأحد يفهم .. صدقنى لافائدة ..

كان أحمد يتأملنى وأنا أتحدث .. ولعله كان يتساءل ماالذى حدث لم يحدث شىء .. هنا لاشىء يحدث .. فقط أدركت أنه لافائدة .

استمر يدخن سيجارته وعيناه تستجوبانني .. شعرت بقواى تخور وبأن الأرض لاتكاد تحملنى فجلست وأشعلت سيجارة وحاولت أن أتكلم .. أن أشرح .. لم أستطع وظلت يداى عالقتين فى الهواء تحاولان شرح ماعجز لسانى عن قوله فلم يفلحا ووضعتهما جانبى ..

وأخيراً نطقت ..

سأسافر ..

أحتاج لأن ابتعد مسافة تجعلنى أرى الأشياء بوضوح .. أحتاج لأن أواجه نفسى .. أن أعيد ترتيب مفرداتى وأن أعيد صياغتها قبل ترتيبها .. أنا لاأصلح الآن بحالى هذا لأى شيء .. يجب أن أسافر .

- إلى أين ؟

- الهند

- الهند ؟ سنجاى تقصدين !!

- لاالهند ..

-ولماذا الهند بالذات ..

- لعلى أفهم ..

وتبعثرت الكلمات وهربت من على لسانى ولم أكمل جملتى .. شكرته على كل شيء وانصرفت .. وقبل أن أغادر المقهى نادانى ..

سأوصلك ..

- شكراً .. لم أعد فى حاجة .. معى سيارتى ..

والتقت نظراتنا ربما للمرة الأخيرة ..

لن يعنيه الأمر كثيراً .. ماذا كنت له .. حلقة فى سلسة .. ماذا كان لى؟ حلقة فى سلسة أيضاً .. قيد وضعته حول عنقى .. أحاول الخلاص منه الآن .

أحكمت غلق الحقيبة .. جلست على الفراش تستريح قليلاً وتنظر حولها تتأكد من أنها لم تنس شيئاً ثم نظرت إلى صورة أبيها ذات الإطار الفضى المعلقة على الحائط من خلال دخان السيجارة المتحلق حولها ..

حاول أبى إ ثنائى عن السفر قدر استطاعته .. ولأول مرة منذ فترة طويلة أشعر بأبى .. أشعر بعلاقة قوية تربطنا معاً .. ولكنها متأخرة جداً .. لم أكن أستطيع البقاء فى مصر .. لم أستطع .. قبلت يده وصافحته ثم التحمنا فى عناق طويل .. ربما لوكان حدث منذ سنوات لاختلفت الأمور الآن .. وكانت أمى غاضبة كعادتها .. تلعن اليوم الذى ولدتنى فيه ودموعها تسبق كلماتها .. أخذت يديها أقبلهما وعانقتنى ..

وبدأت أضحك حتى أخفف من حدة الموقف وقلت لهما : أنا مسافرة حتى تستطيعا قضاء شهر عسل بدون إزعاج .. فانتهزا الفرصة لأننى لن أغيب طويلاً ..

كنت أكذب فليس فى نيتى أن أعود ..

نظرت إلى ساعتها للمرة الأخيرة .. يتسرب الوقت من بين يدى كالماء.. وإن أمسكت ببعض قطراته جفت بسرعة الزمن الذى ينفلت من بين حواسى .. حملت الحقائب الثلاثة واحدة تلو الأخرى ووضعتها بالقرب من باب الشقة .. والأسئلة تتزاحم بداخلها ويتعالى صياحها .. هل يفيد السفر حقاً .. هل أجد هناك مافقدته هنا .. هل أحقق ما عجزت عن تحقيقة هنا .. هل أتخلص ..

دق جرس التليفون .. التفتت إلى مصدر الصوت .. مشت خطوة باتجاهه .. ووقفت لبرهة .. ثم استدرت نحو الحقائب الثلاثة ورنين الجرس لم يزل يدوى فى المكان .

القاهرة/يونيو١٩٩٣ / أغسطس ٩٩٧

□ □ □

المؤلف

- **منى برنس**
- ليسانس آداب . إنجليزي . جامعة عين شمس .
- مدرس لغة إنجليزية . كلية التربية . جامعة القاهرة .
- تعد رسالة الماچستير عن روايات الكاتب النيچيري شنوا آتشيبي .
- نُشر لهاالعديد من القصص القصيرة في جريدة الحياة اللندنية ، أخبار الأدب ، أدب ونقد .. وغيرها .
- قيد النشر مجموعة قصصية بعنوان " قطعة الطين الأخيرة " .

□ □ □

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
أنا كنده	كيروجا ترجمة: رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــــد	عبده خال
صعيدى صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إبنارو	د علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبد الحافظ

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لفندى	عصام خميس
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيــــا تنادينــا	طارق الزياد
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
غربة [illegible]	محمد الفارس
ونس	محمد الحسينى
ليالى [illegible]	محمد محسن
غنمة فى حجر صيادها	ناجى شعيب
العجوز [illegible] يجمع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح [illegible]	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

دراسات ..

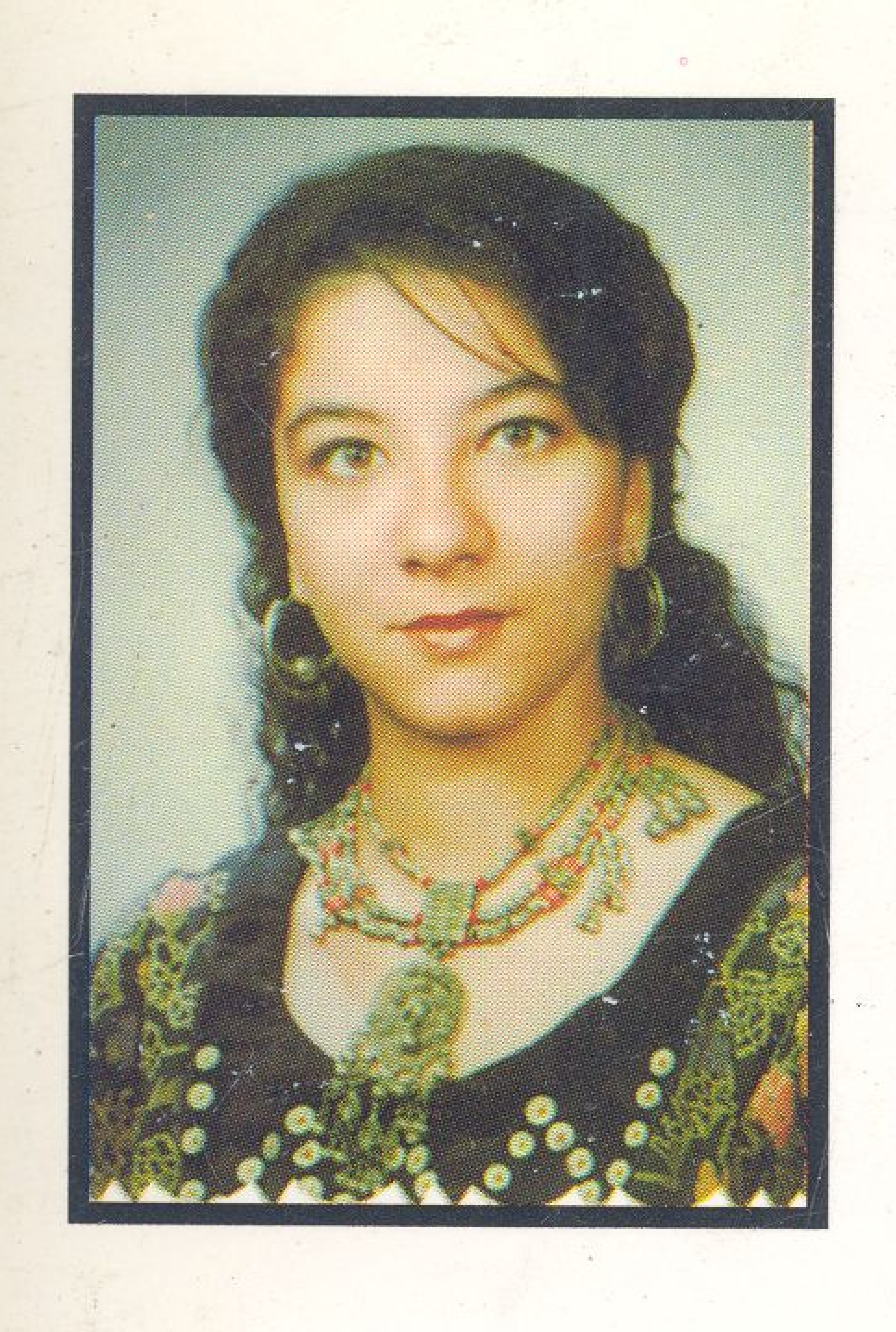
العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعانى فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب ، نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
زمن الرواية ، صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى

تراث ..

العنوان	المؤلف
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	نادر ناشد
الفاشوش فى حكم قراقوش	نادر ناشد
الحكمة المدنية لابن المقفع	نادر ناشد

بالإضافة إلى: كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصـــدارات لا تعـبـــر بالضـــرورة عـن آراء يتـــبناهـا المركـــز



شعرت أنه ربما يكون في حاجة إليّ..
تناول يدى وضعها في يده ..
قلت وسيجارة مشتعلة بين أصابعى
سألسعك بالنار ..
فنظر إليّ نظرة استفهام .
فأضفت : ثم أكسّر أسنانك ..
أبتسم أحمد وقال : وبعدين ..
قلت : ثم أحطم رأسك مثلا ..
فقال أحمد : وبعدين .. يعنى عايزة
توصلى لإيه .. ماالغرض من كل ذلك ؟
فتطلعت إليه وقد فهمت السؤال جيداً
.. سحبت يدى من يده .

